

البَابُ الثَّالِثُ

الإمامة الروحية

obeyikandi.com

## الفصل الأول

### على زين العابدين

لاشك أن الشيعة الإمامية قد بدأت عقيدتها في الإمامة الروحية بالإمام على بن أبي طالب . بل إن المسلمين عامة — شيعة وسنة — يرون نفس الأمر في على ، ولكن عليا كان بجانب خصائصه الروحية الكبرى مقاتلاً ، كما كان ابنه الحسين من بعده . بل إن ابنه الحسن أراد القتال أيضاً أول الأمر . ثم إذا اتجهنا إلى الابن الثالث محمد بن الحنفية ، نراه من طرف خفي ، يدفع المختار إلى حركته العنيفة ، فيقتل قتلة الحسين جميعاً وإن كان هو نفسه قد أبي أن يبايعه المسلمون حتى تجتمع الأمة جميعاً عليه . ولكن بقي العقب الوحيد الباقي من أبناء الحسين «على بن الحسين» يحظ للشيعة بل للمسلمين جميعاً سنة أخرى . وقد أجمع أهل السنة والجماعة والشيعة على تلقيبه بزین العابدين وبالسجاد ، وبذی الثغفات ، وغلب عليه اللقب الأول ؛ بل نرى عالم الخلف العظيم محمد بن زاهد الكوثري يدعو «بالإمام الذي يجلي عن الوصف (١)» .

ولدى على بن الحسين بالمدينة عام ٣٨هـ . ومات جد على وهو في السنة الثانية من عمره ، وقتل أبوه في سهل كربلاء ، وهو في الثالثة والعشرين ، وكان مريضاً فلم يشترك في المذبحة التي قتل فيها أبوه وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه . وأراد عبید الله بن زياد قتله ، ولكن عمته زينب بنت علي قامت دونه تحول بينهم وبينه ، وأرسله عبید الله إلى يزيد مع أهل بيت الحسين عليه السلام من النساء . وحين وصلت قافلة آل الرسول من النساء إلى دمشق ، أراد الأمويون قتله حتى لا يبقى من آل الرسول أحد على وجه الأرض . ولكن زينب بنت فاطمة الزهراء حالت دون هذا مرة أخرى ، ويقرر يزيد آخر الأمر أن يوجه بعلي بن الحسين إلى المدينة مع نساء آل البيت . ووصل على بن الحسين إلى المدينة ، واستقر فيها لم يرحها — على الإطلاق — مدى حياته (٢) .

كانت الحوادث قد صقلته صقلاً نهائياً ليكون أول عابد رسمي من عباد الإسلام . وأن يأخذ بحق لقب زين العابدين والسجاد وذی الثغفات . رأى بعينه الصفوة من آل رسول الله يتساقطون الواحد بعد

(١) هامش كتاب التنصير . للإسفراسي .

(٢) ابن العباد - شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٤ .

الآخر أمام سيوف أهل الكوفة الغلاظ ، ثم رأى ما نزل بالصفوة من نساء بنى هاشم من مهانة ، من ابن مرجانة ، ثم من يزيد ، رأى نفسه وقد أمره يزيد أن يصعد المنبر في دمشق « لكي يعذر إلى الناس مما كان من أبيه » ليعلم للناس أن أباه كان على الباطل ، وهو موقن أن أباه كان على الحق ، ويصعد الشاب الفتى إلى المنبر فيصيح « يا أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسى ، أنا على بن الحسين ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه ، أنا ابن السراج المنير (١) » رأى كل هذا ، وأخيراً يجد نفسه ثانية عائداً إلى المدينة ، هو وآل بيته من النساء مشعثاً مغبراً ، وبالأسس القريب كان يترك المدينة مع أبيه وأهل بيته ، مستجيبين لدعوة أهل العراق وكلهم أمل في نصرتهم لأبيه . فلجأ إلى العبادة ، وإلى كثرة السجود ، وإلى المقابر يلوذ بها . ولكن الأحداث تترى ، وتصبح المدينة مرة أخرى مسرحاً لأعظم الحوادث في العالم الإسلامي . فقد أعلن أهلها من الأنصار الثورة ضد يزيد خليفة دمشق الفارق في هوه وقجره ولعبه وسكره ، وأخرجوا عامله عليها . فأرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة إلى الأنصار ، فهزمهم في واقعة الحرة ، ثم دخل مسلم بن عقبة المدينة ، وكان يؤقى إليه بالرجل من الأنصار فيطلب منه أن يبايع على أنه عبد ليزيد . وكان الأنصار يابون هذا ، فقتلهم مسلم واحداً بعد واحد . وكان على بن الحسين قد لاذ بالقبر النبوي ، فلما رأى فشو القتل في المسلمين ، ذهب إلى مسلم فقال له : علام يريد يزيد أن أبايعك ؟ فأجاب مسلم الجبار ، وقد ارتعد من السجود وقام له قائلاً : على أنك أخ وابن عم . فقال : وإن أردت أن أبايعك على أنى عبد قن فعلت . فقال مسلم : ما أجشحك هذا . فلما رأى أهل المدينة إجابة على بن الحسين . قالوا : هذا ابن رسول الله ﷺ بايعه على ما يريد ، فبايعوه على ما أراد (٢) « وبهذا أنقذ على بن الحسين الكثيرين من أهل المدينة من القتل . وكانت هذه أول قدوة قدمها على بن الحسين لإنقاذ المسلمين من سيف يزيد القاسى .

ومات يزيد . وأقبل العزاقيون إلى على بن الحسين يحاولون جذبته إليهم ، وينادون بإمامته ، فقال لهم ، وقد ذكر جده وعمه وأباه « ما أكذبكم وأجرأكم على الحق ، نحن من صالحى قومنا وبعبئنا أن نكون من صالحى قومنا (٣) » فلا عجب إذن . إن رفض دعوة المختار إليه لبايعه ، يقول المسعودى : « وكتب المختار كتاباً إلى على السجاد يريد أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه مالا

(١) أبو الفرج الاصبهاني : مقاتل الطالبين . ص ٨٩ .

(٢) المعقوف : تاريخ ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ وأيضاً المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٥٨ .

كثيراً ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، وأن يجيبه على كتابه (١) ، بل نصح عمه محمد بن الحنفية أن يفعل ذلك ، ولكن محمد بن الحنفية أبى ، وأرسل بعده إلى المختار ، ويبدو أن علي زين العابدين خشي أشد الخشية أن تؤدي حركة المختار إلى قتل الشيعة في الكوفة ، وهو أمر حاول بكل الوسائل أن يتجنبه ولكن ما لبث أن رضى عن المختار حين قتل عبيد الله بن زياد . يذكر اليعقوبى « أن المختار وجه برأس عبيد الله بن زياد — قاتل الحسين عليه السلام — إلى علي بن الحسين عليه السلام إلى المدينة مع رجل من قومه ، وقال له : قف بباب علي بن الحسين ، فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل الناس ، فإذا ذلك الوقت الذى يوضع فيه طعامه ، فأدخل إليه . فجاء الرسول إلى باب علي بن الحسين عليه السلام ، فلما فتحت أبوابه ودخل الناس للطعام ، نادى بأعلى صوته : يا أهل بيت النبوة ومعادن الرسالة ومهبط الملائكة ومنزل الوحي ، أنا رسول المختار بن أبى عبيد ، معى رأس عبيد الله بن زياد ؛ فلم تبق في شيء من دور بني هاشم امرأة إلا صرخت . ودخل الرسول ، فأخرج الرأس » فلما رأى علي زين العابدين رأس قاتل أبيه وقاتل إخوته وأولاد أعمامه ، ومذل نساء الرسول ، أشاح بوجهه وقال « أبعده الله إلى النار » وروى اليعقوبى : « أن علي بن الحسين لم يرضحاً منذ قتل أبوه إلا في ذلك اليوم ، وأنه كان له إبل تحمل الفاكهة من الشام إلى المدينة ، فلما أتى برأس عبيد الله بن زياد أمر بتلك الفاكهة ففرقت في المدينة . وفي هذا اليوم أيضاً اختضبت نساء آل الرسول ﷺ . وما اختضبت امرأة منهن منذ قتل الحسين » (٢) .

وعاش علي بن الحسين الأحداث العظمى التي مرت بالعالم الإسلامى إبان ذلك الوقت ، عاصر حركة ابن الزبير ، ولكنه لم يكن — فيما يرجح — ممن حصرهم عبد الله بن الزبير في شعب مكة . فاسم زين العابدين لا يظهر في تلك الأحداث ، كان معه محمد بن الحنفية هو صاحبها . وحين أعلنت الكيسانية مهدية محمد بن الحنفية ، لم يتازعه زين العابدين الأمر ، بل حين أعلن كعب الأحمري ، أن محمد بن الحنفية ، هو المهدي ، لم ينس علي زين العابدين بينت شفة ، بل يقوم الشعراء — ككثير ينادى واصفاً محمد بن الحنفية :

هو المهدي تجبرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالي (٣)

(١) السعدي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ . ج ٣ ص ٦ .

(٣) السعدي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٥ .

يسمع كل هذا فلا يعترض على ، وتعلن الكيسانية أن الأئمة من قريش أربعة على والثلاثة من بنيه ، ولا يقدر زين العابدين في عمه لا من بعيد ولا من قريب ولقد اندفعت الإمامية فيما بعد إلى المقارنة بين علي زين العابدين ، وبين عمه محمد بن الحنفية ، ولجأوا إلى وضع أسطورة الاحتكام إلى الحجر الأسود حين تنازع الاثنان الوصية وحكم الحجر الأسود لعل زين العابدين ، فقبل محمد بن الحنفية إمامة ابن أخيه . وكل هذه أخبار لا ظل لها في الحقيقة ، فلم يختلف الاثنان قط ، بل كان محمد بن الحنفية كشيخ بني هاشم ! إبان ذلك الوقت أكبر مدافع عن بني الفواطم ، ولقد وقف يقارع عبد الله ابن الزبير الحجة ويعرض نفسه للقتل حين وقف هذا الأخير بخطب ويقول : إني لأكتم بفسكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة ، ثم هاجم علياً وأبناء فاطمة ، وقد نفاه عبد الله بن الزبير إلى منى وحبس ابنه الحسن بن محمد بن الحنفية ، ثم ادعى ابن الزبير - وهو يلحد في حرم الله - أنه العائد بالبيت ورد عليه كثير :

تخبر من لاقيت أنك عائد بل العائد المظلوم في سجن غارم  
ومن ير هذا الشيخ بالحيف من منى من الناس يعلم أنه غير ظالم  
سمى نبي الله وابن وصيه وفكالك أغلال وقاضي مغارم

بل عمد ابن الزبير - بعد أن حصر محمد بن الحنفية وبني هاشم - إلى حطب كبير لو وقعت فيه شرارة من نار ، لم يسلم من الموت أحد (١) . فعل ابن الحنفية كل هذا لأجل أبيه علي وإخوته من بني الفواطم فما كان إذن زين العابدين أن يختلف معه . ومات محمد بن الحنفية في المدينة عام ٨١ هـ . ولم يختلف أبداً مع ابن أخيه .

كان لعل زين العابدين طراز في الحياة أغناه عن الخلاف مع الناس . كان يتعبد بلا انقطاع ، فسمى بزین العابدين ، ويكثر السجود ، فقبل له السجاد ، وصهر نفسه في العبادة حتى ثفت جبهته - وورمت ركبته وراحته - فسمى بذى الثففات وكان يقول : إن لله عبادة عبده رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرين عبده رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وآخرين عبده شكراً ، فتلك عبادة الأحرار (٢) . ومن للشيعه البكاء على الحسن بل اعتبره الشيعة أحد البكائين الخمسة . فقد بكى آدم ثلاثمائة سنة بعد ارتكابه المعصية ، وبكى نوح قومه ، ويعقوب يوسف ، ويحيى خوف النار ، وبكت فاطمة النبي صلوات الله عليه ، وزين العابدين الحسين والذي استشهدوا معه . وقد طبع زين العابدين الشيع عامة بالحزن المقيم ، وشارك فيه على السواء الغلاة والمقتصدون من الشيعة . ولقد طبعت حركة

(١) المعرى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣ .

(٢) ابن العاد : شذرات ج ١ ص ١٥٤ .

التواين من ناحية وحركة المختارية والكيسانية من ناحية أخرى بهذا الطابع الحزين ، ولعل هذا ما يفسر إسراع المختار بن أبي عبيد بإرسال رأس عبد الله بن زياد إلى علي زين العابدين ، ولم يرسلها إلى الإمام الرسمي للشيعة محمد بن الحنفية ، مع أن المختار كان يقاتل بأسمه وتحت رايته ، ولقد عاش هذا الحزن الذي انبثق من قلب زين العابدين في قلوب الشيعة حتى يومنا هذا . غير أنه انقلب إلى حقد مقبت وسخيمة قتالة ، ولم يعرف ابن الحسين هذا أبداً . بل إن الحديث الذي رواه عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد عن رسول الله إنما كان يتناول غفران الله للعابدين : كل عين باكية للقيامة إلا أربعة : عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين فقتت في سبيل الله تعالى ، وعين غفت عن محارم الله تعالى ، وعين باتت ساهرة ساجدة يباهي الله الملائكة يقول : انظروا إلى عبدي روحه عندي وجسده في طاعتي ، قد جاف بدنه عن المضاجع يدعوني خوفاً من عذابي وطمعاً في رحمتي ، اشهدوا أني غفرت له (١) ، لقد كان البكاء على الحسين هو السنة التي استنها على بن الحسين للشيعة وقد نقل الشيعة عنه «أما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين ، حتى تسيل على خده ، بواه الله بها في الجنة غرقاً يسكنها أحقاباً ، وأما مؤمن دمعت عيناه على خديه فيما مسنا من الأذى من عدونا في الدنيا ، بواه الله منزل صدق ، وأما مؤمن مسه أذى فينا ، فدمعت عيناه حتى تسيل على خديه من فرط ما أودى فينا ، صرف الله عن وجهه الأذى وأمنه يوم القيامة من عذاب النار» (٢) ، ولقد كان البكاء على الحسين كما قلت داعياً إلى قيام حركة التواين ، وإلى ملحمتهم الكبرى في عين الوردة - فقد نادى التوايون كما قلنا بالتلاوم والتنادم وخرجوا وقد أخذت ذكرى الحسين عليهم أيما مأخذ - ووقف عبد الله بن الأحمر يبكي الحسين :

صحوت وقد وودعت الصبا والعواديا	وقلت لأصحابي أجيوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى	وقيل الدعا : ليك ليك داعيا
ألا وانع خير الناس جداً ووالداً	حسبنا لأهل الدين إن كنت ناعيا
ليك حسينا مرملة ذو خصاصة	عديم وأيتام تشكى المواليا
فأضحى حين للرماح دريشة	وغودر مسلوباً لدى الطف ناويا
فيا ليتني إذ ذاك كنت شهدته	فضاربت عنه الشائين الأعاديا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى	بغريبة الطف الغمام الغواديا

(١) كاظم جواد الساعدي : حياة الإمام علي بن الحسين ص ٣٢٦ و ٣٣٠ .

(٢) انظر الفصل الرابع الذي كتبه أحمد صبحي عمر عن علي زين العابدين في إخاء عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية وهو بحث تحت الطبع . وإني لأدين له بمعرفة كثير من هذه النصوص عن علي زين العابدين ومواقعها .

فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيبو فأرضوا الواحد المتغاليا<sup>(١)</sup>

هذه صورة لبكاء علي بن الحسين يتردد في الكوفة ، فيقوم التوابون بحركتهم ويقتل التوابون ، ولكن الشيعة يمددون البكاء على الحسين في مجالس العزاء الشيعية ويذكرون فيها الحسين على الدوام . وقد بقيت هذه المجالس حتى الآن .

أما القداسة التي نسبت إلى أهل البيت ، والعصمة التي أضيفت إليهم ، فلم تر الشيعة المعاصرة لعل زين العابدين وضعه في سلسلة الخالدين أو المعصومين أو الراجعين ، فالغلو أو لا يتركز حول جده علي ، ثم ينتقل إلى عمه محمد بن الحنفية ، ثم يفضي على أبي هاشم ، ثم ابنه الإمام الباقر . ويبدو أنه قطع الطريق على كل غال بنوع حياته التي حياها ، وبطراز دعواته . وقد قدم لنا الدعاء الآتي : «إلهي بعزتك وجلالك ، ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك معترض ، ولكن سولت لي نفسي وأعانتني على ذلك سترك ، فأنا الآن من عذابك مستجير ، فمن ينفذني ؟ وبجبل من أعتصم ؟ إن قطعته عنى فوا أسفاً مما ألقاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفيين جوزوا ، وللمثقلين حطوا ، أعم الخفيين أجوز أم مع المثقلين أخط ؟ . سبحانك تعفو كأنك لا ترى وتعلم كأنك لم تعط تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت سيدى الغنى عنهم » فلما قيل له « أنت تفعل هذا بنفسك وأبوك الحسين ، وأمك فاطمة وجدك رسول الله . فقال : هيات هيات - دع عنك حديث أبي وأمي وجدى . خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان شريفاً قرشياً ، فإذا نفخ في الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »<sup>(٢)</sup> ، فهو هنا يعلن أنه رجل من قريش ، عليه ما على الناس وله ما لهم ، بل ولا فضل لقرشى على عجمي . بل إنه يقول لأهل العراق « ما أكذبكم وما أجرأكم على الله نحن من صالحى قومنا ، وبمحبنا أن تكون من صالحى قومنا »<sup>(٣)</sup> . ويقول الدكتور كامل الشيبى : إن زين العابدين كان حرباً على السبئية والكيسانية ، وكان يقول لهم « أشهد أنكم لسبتم من الذين قال الله عز وجل فيهم : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » . وإني أعتقد أنه فعل هذا في مبدأ الأمر ، ولكن صلواته بالمختار كانت على خير ما يكون . وقد قبل هداياه . كما قبل منه أيضاً أم ولده زيد . أما أنه كان يكره الغلو ، فإنه كان يذكر « أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار

(١) كاظم جواد الساعدي : حياة الإمام علي بن الحسين ص ٣٢٦ ، ٣٣٠ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ... ج ٣ ص ٣٨ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٠ .

علينا عاراً»<sup>(١)</sup> ويقول أيضاً «إنه ليس عندنا ما يرميننا به هؤلاء» وأشار بيده إلى أهل العراق . فهذا ما فعله أيضاً ابن الحنفية ، وهذا يمثل الجانب الحقيقي من أهل البيت ، أو الجانب السني فيهم . ولا عجب أن نراه يتولى أصحاب محمد رسول الله ويدعولهم في الصحيفة السجادية المنسوبة إليه ، وأن نرى ابنه الإمام زيدا يتابع ستة آية ويختلف مع غلاة الشيعة في الكوفة فيما بعد - حين يتولى الشيخين . وكان من أصحابه أو بمعنى أدق من مشايخه ، سعيد بن المسيب عالم المدينة الكبير وكان سعيد يقول : ما رأيت قط أفضل من علي بن الحسين عليه السلام ، وما رأيت قط إلا مقت نفسى<sup>(٢)</sup> كما كان أيضاً تلميذاً للتابعي الكبير «سعيد بن جبيرة» ونستنتج من كل هذا أن علياً زين العابدين وضع نفسه في تيار السنة العام .

ويقول ابن تيمية «أما علي بن الحسين ، فن كبار التابعين وساداتهم علماءً وديناً . أخذ عن أبيه وعن ابن عباس والمسور بن مخرمة وأبي رافع مولى رسول الله وعائشة وأم سلمة وصفية أم المؤمنين ، ومروان ابن الحكم وسعيد بن المسيب وعبد الله بن عثمان بن عفان » ، ويذكر من روى عنه عدداً كبيراً من المحدثين . ويذكر أن يحيى بن سعيد قال ؛ هو أفضل هاشمي رأيت وروى عن حماد بن زيد قال : سمعت علي بن الحسين يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح حبكم حتى صار علينا عاراً ، ثم يذكر ابن تيمية أن له من الخشوع وصدقة السر وغير ذلك من الفضائل مما هو معروف . وأنه كان ستواضعاً يجالس زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب<sup>(٣)</sup>

ولا نرى أيضاً في محيط الغلاة في عصره نسبة العلم السري إليه وقد نسب الغلاة هذا العلم إلى محمد ابن الحنفية ، كما نسبوه إلى أبي هاشم ، وهو ابن عم زين العابدين ، حقاً إن ابن عربي وهو الصوفي المتأخر ، ينطق علياً زين العابدين بالأبيات الغنوصية الآتية :

إني لأكتم من علمي جواهره	كفي لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا
وقد تقدم في هذا أبو حسن	إلى الحسين ووصى قبله الحسن
يسارب جوهر علم لوأبوح به	لقيل لي أنت ممن يعبد الرثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يرونه حسنا <sup>(٤)</sup>

(١) الدكتور كامل الشبي : الصلة بين التصوف والشيعة ١٠٤ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ . . ج ٣ ص ٤٥ .

(٣) ابن تيمية : منهاج ج ٢ ص ١٢٣ .

(٤) ابن عربي الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٦٠ .

إن من الثابت أن علي بن زين العابدين لم يظهر في سلسلة الأئمة الغنوصيين لدى الغلاة ، لقد وضح كل نواحي حياته أمام الناس ، فلم يعد ثمة مدخل لغنوصي أولغال أولدساس . وكان يتكلم دائماً وفي أحاديثه الرقيقة الغنية عن جيران الله - هؤلاء الذين كانوا في الدنيا يتجالسون في الله ويتذاكرون في الله ويتراوون في الله ، وأهل الفضل ، الذين إذا جهل عليهم حلموا ، وإذا ظلموا صبروا ، وإذا أسى عليهم عفوا ، وأهل الصبر الذين صبروا على طاعة الله . وصبروا عن معاصي الله ، بل إنه كره أوائل الكلام العقل ، واعتبره مراءاً (١) . ووضع بهذا سة لأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ، ولعل أوائل المعتزلة كانوا قد ظهوروا في عصره وسرى ابنه زبداً يأخذ على واصل بن عطاء وسينكر عليه هذا الإمام الباقر والإمام الصادق .

ويبدو أيضاً أن علي زين العابدين سن للشيعة التقيّة ، فقد اتقى مسلم بن عقبة يوم الحرة ، كما اتقى الحجاج ، وقد حاول الحجاج ، أن يجرعه الغيظ ، وكان يتهدده دائماً ، ولكن الإمام العظيم لم يهن ولم يرع بل قال له « إن لله في كل يوم ثلاثمائة لحظة وأرجو أن يكفينيك في أول لحظة من لحظاته » (٢) وأرسل عبد الملك بن مروان بنفس هذا الكلام إلى ملك بيزنطة حين بعث يتهدد عبد الملك بغزو الشام ، فلما قرأها ملك بيزنطة قال لرسول عبد الملك « هذا ليس من كلامه ، هذا من كلام عترة نبي » ، وقد كتب عبد الملك بعدها إلى الحجاج - وهو أمير على الحجاز - « جنيني دماء آل أبي طالب ، فأني رأيت آل حرب لما تجمعوا بها لم ينصروا » ، فاعترض الحجاج بعدها للإمام ، وفي أيام سليمان بن عبد الملك اتقاه زين العابدين ، وكان يرسل إليه الرسائل يقرظه ويملحه ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز كتب إليه يعظه ويخوفه من الله - فلما سئل عن هذا قال : إن سليمان كان جباراً ، فكبت إليه بما يكتب إلى الجبارين ، وإن عمر أظهر أمراً ، وكبت إليه بما شاكلة » (٣) ونصائح بعد ذلك في « حق السلطان وحق الرعية ، دعوة إلى التقيّة من السلطان الجائر ، وقد أراد الرجل أن يحفظ دماء الشيعة . (٤)

ثم تأتي مشكلة الزهد ، فهل كان الرجل حقاً رائد الزهد ، كما حاول الزهاد فيما بعد ؟ لقد كان علي زين العابدين يقول : « من عفا عن محارم الله كان عابداً ومن رضى بقسم الله كان غنياً ، ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلماً ومن صاحب الدنيا بما يجب أن يصاحبه كان عدلاً ، وبش القوم اختلوا الدنيا بالدين وبش القوم قوم عملوا بأعمال يطلبون بها الدنيا » ، وكان يقول « كلكم سيصير حديثاً حسناً فليفعل . وقد نظمه ابن دريد بعد ذلك :

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨ .

(١) الدكتور كامل الشيبى ص ١٦٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٦ - ٤٧ .

وإنما المرء حديث بعده فكأن حديثاً حسناً لمن وعى  
 بل يضع على زين العابدين أساس فكرة المحاسبة ، وهي فكرة أخذت جانباً كبيراً من تفكير الزهاد  
 والمتصوفة فيقول : « ابن آدم لن تزال بخيرها ما كان لك واعظ من نفسك ، وما كانت المحاسبة من  
 همتك . وما كان لك الخوف شعاراً والحزن دثاراً » ونحن نعلم أن المحاسبة وخوف الموت والحزن كانت كلها  
 شعارات الزهاد الأولين . ولكن من الخطأ القول . إن علياً زين العابدين كان يؤسس « نظاماً معيناً »  
 للزهد وللزهاد . ولم يرد عنه أنه لبس الصوف ، كما كان يفعل زهاد الغلاة الشيعة . كان هؤلاء إما  
 يتزهدون فعلاً في لباس الصوف كما فعلت ليلي الناعطية ، وإما يظهرون التزهد ، وهو تزهد انتهى بهم  
 إلى الزندقة ، كان تزهد على السجاد ، تزهداً إسلامياً ، يشبه زهد علي بن أبي طالب نفسه ، إنه تزوج  
 وتسرى بل كان يتاجر بين الشام والمدينة ، وهو ما لم يفعله جده الأعلى علي . أما الصحيفة السجادية  
 التي نسبت إليه فإن أغلبها منحول ، وضعها الشيعة المتأخرون ، وحملوه فيها ما لم يقله ، وما لا يثبت  
 صحته أمام النقد الداخلي للنصوص . وحين مات وغسل وجدوا على كتفيه جلياً كجلب البعير ، أي  
 قشرة سمكة كتلك التي تعلق الجرح عند البرء منه فقيل لأهله : ما هذه الآثار؟ فقالوا من حملة الطعام  
 في الليل يدور به على منازل الفقراء . وتذكر المسلمون قوله حين دفنه « فقد الأجابة غربة » (١) وقد  
 عاش علي زين العابدين غريباً في الدنيا ، وذهب آخر الأمر إلى جده العظيم حيث الأجابة ، وحيث  
 لا غربة .

واحتل علي زين العابدين بن الحسين المكان البارز لدى الشيعتين الاثني عشرية والإسماعيلية ، فهو  
 الإمام الرابع لدى الفرقتين ، ومنه تناسلت الأئمة . ولكن لعل زين العابدين في تاريخ التشيع مكانة  
 أخرى فهو ابن الخيرتين ، ذلك أن أمه هي شهر بانويه بنت يزيد جرد ، آخر الأكاسرة . فقد أسرها  
 العرب هي وأختها فوهبها عمر بن الخطاب - واحدة للحسين بن علي والأخرى لمحمد بن أبي بكر -  
 وقد سماها الحسين تكريماً لها - السلافة ، فعلى زين العابدين نسل النبوة والأكاسرة معاً وقد ذكر  
 أبو الأسود الدؤلي الديلمي هذا بقوله :

وإن وليداً بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التأمم  
 هو النور نور الله موضع سره ومنع ينبوع الإمامة عالم

وقد وضع الشيعة حديثاً عن رسول الله ﷺ وهو « الله من عباده خيرتان : فخيرته من العرب  
 قريش وخيرته من المعجم فارس » وقالوا بأن زين العابدين هو المقصود بهذا الحديث . ولعل هذا يفسر  
 بعد ذلك اتباع الفارسيين للمذهب الشيعي فقد جمع العقب الباقي من الحسين بن علي في نفسه وصية

الرسول وارث فارس ، فهو إذن صاحب الحق الإلهي في ملك العرب والمعجم ؛ فعلى عرش قلبه الإسلام وعلى رأسه تاج الأكاسرة . إن هذا الترميز في علي زين العابدين متأخر كل التأخر ، وما فكر فيه ابن الحسين ، ولا فكر فيه معاصره . إن من المؤكد أن دعوى مثل هذه استخدمت في عصور متأخرة لنشر التشيع الإمامي الاثني عشري في فارس ، ولكنها لم تعرف أولاً ، ولم يذكرها الغلاة ، وكان الكثيرون منهم من الفرس ، كما أن فكرة النور الفارسية الثنوية القنوصية لم تنسب إلى علي زين العابدين ، كما لاحظ بيرة الدكتور الشيبلي أنها نسبت إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر (١) .

وناقى أخيراً إلى وفاة زين العابدين ، فقد قرر الشيعة أنه مات مسموماً ، وذلك حين رأى الأمويون ازدحام الناس حوله وبالرغم منه ، ويذكرون دليلاً على هذا قصة حجه حينما حج هشام بن عبد الملك . وأراد الأخير أن يصل إلى الحجر الأسود فحال الزحام دون وصوله إليه . فلما أقبل زين العابدين انفرجت الصفوف ، حتى استلم الحجر ، وسأل رجل من أهل الشام : من هذا ؟ فقال هشام : أنا لا أعرفه . وأنشد الفرزدق وكان حاضراً :

هذا سليل حسين وابن فاطمة بنت الرسول من انجابت به الظلم  
 هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم  
 هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى التقى الطاهر العلم  
 هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله يجده أنبياء الله قد ختموا (٢)

وخشى الأمويون آخر الأمر الإمام ، والناس تبعه من حيث لا يريد ، فندسوا إليه من سمه . ولكننا لا نحمد إشارة إلى سمه في أقدم المصادر الشيعية وعلى الأخص في تاريخي يعقوبى والمسعودى . ولقد توفي زين العابدين في خلافة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩ هـ ، ويقول يعقوبى إن عمر بن عبد العزيز ذكره يوماً فقال : ذهب سراج الدنيا وجمال الإسلام وزين العابدين . فقيل له : إن ابنه أبا جعفر محمد بن علي فيه بقية . بل إنه حين وعظه زين العابدين قبل وفاة الإمام بقليل ، قال عمر بن عبد العزيز : إن أهل هذا البيت لا يحلبهم الله من فضل (٣) يبدو إذن أن قصة سمه اخترعها الشيعة المتأخرون لإسباغ العطف على الأئمة ، ولتناسق دعوى الشيعة الاثني عشرية « أن الأئمة الاثني عشر قد ماتوا جميعاً شهادة » ، ولقد خلف علي زين العابدين أولاداً كثيرين يعنينا منهم اثنان هما : محمد الباقر ، وزيد بن علي ، وقد كان لهما الأثر الكبير في تطور العقيدة الشيعية ، كل من وجهة نظره .

(١) الدكتور الشيبلي : الصلاة ... ص ١٥٦ .

(٢) انظر القصيدة كاملة في ابن العماد : شذرات ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) يعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٨ .

## الفصل الثاني

### الإمام محمد الباقر

ولد محمد الباقر سنة ٥٧ هـ . وقتل جده الحسين وله من العمر أربع سنوات . وكان يقول « إني لأذكر مقتله وما نالنا في ذلك الوقت » وقد بشر رسول الله بولادته وقال للصحابي المشهور جابر بن عبد الله الأنصاري : « إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي - اسمه اسمي إذا رأيته لم يجل عليك ، فأقرته مني السلام » وورد الحديث في صورة أخرى « يا جابر إنك ستعيش حتى تدرك رجلاً من أولادي اسمه اسمي يبقّر العالم بقرّاً ، فإذا رأيته فأقرته مني السلام » ولما كبر جابر ، وخاف الموت ، كان يسير في طرقات المدينة يصيح « يا باقر يا باقر أين أنت ؟ » حتى ولد محمد ، ودخل الكتاب فأقبل عليه جابر يقبل يديه الصغيرتين ورجليه ويقول « بأبي وأمي شبيه أليك رسول الله ، إن أباك يقربك السلام (١) . . وإذا كانت العبادة قد غلبت على أبيه وأصبحت سمته ، فقد غلب العلم على محمد الباقر ، فكان أول عالم من الأئمة الفاطميين بعد علي بن أبي طالب ، وقد عاصر الباقر حتى وفاته عام ١١٩ هـ أهم الحركات العقلية التي أسست التفكير الإسلامي عامة - فيما بعد - كما عاصر أيضاً الحركات السياسية التي سادت في العالم الإسلامي إبان ذلك الوقت ، وإذا كان قد سار على سنة أبيه فيما يخص السياسة ، فقد اختلف عن أبيه في أنه أخذ يرمي قواعد « عقيدة الإمام » ويضعها في أسلوبها المنهجي ، الذي سنراه يتضح عند ابنه جعفر الصادق على أكبر صورة ولقد اعتنى أيضاً بالحديث وروايته ، وقد روى عن أبيه كما روى عن الثقات العظام من محدثي المدينة كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرة . ولعله رأى تلك الغنوصية التي أدخلها الغلاة في الأحاديث ، فوجه اهتمامه إلى هذه الناحية الهامة من التراث الإسلامي . وقد أخرج جماعة من ثقات رواية الشيعة من أسنان جابر بن يزيد الجعفي ووزارة بن أعين ويريد العجلي وسدير الصيرفي . وتذكر الأخبار الشيعية أن أبا حنيفة أيضاً روى عنه .

عاصر الباقر ابن عم أبيه أبا هاشم بن محمد بن الحنفية ، وما أحاطه من حركات الغلو الكوفية ، بل في المدينة نفسها . وقد أهماه كل هذا . وحاول جهده أن يوقف تيار الغلو فتراها من حمزة بن عمار

(١) البخاري : تاريخ ج ٣ ص ٦١ .

البربري ولعنه في مسجد رسول الله (١) كما فعل هذا مع بيان بن سمعان والمغيرة (٢). وفسر الشيعة بقوله «يا معشر الشيعة: شيعة آل محمد، كونوا النمرقة (أى الوسادة) الوسطى، يرجع إليكم الغالي ويلحق بكم التالي» ويفسر الغالي بأنه من يقول فيه ما لا يقال في نفسه، والتالي بأنه المرتاد يريد الخير يؤجر عليه (٣)، وينبغي أن نلاحظ أن كلمة الإمامية لم تظهر على عهد الباقر، إنما كان أتباعه هم المقتصد من الشيعة. ويبدو أنهم كانوا في عهد زين العابدين والباقر قلة في المدينة وفي الكوفة. أما بقية الشيعة فقد تقاسمهم الكيسانية بفرقها المختلفة، والغلاة بحركاتهم العنيفة، بينما كانت العباسية أو الراوندية تثبت أقدامها في خراسان وفي وسط هذه الحركات المتضاربة المتناقضة عاش محمد الباقر حياته الهادئة بمنأى عن كل شيء سوى رسالته العلمية، إن صلته الوحيدة بالسياسة إنما كانت - كما كان أبوه من قبل - ثانياً مدحه للمختار بن أبي عبيد، وفيما سوى ذلك، لم يتصل بالسياسة أو يتكلم فيها لا من قريب ولا من بعيد.

ولكن هنا تقابلنا المشكلة التي تقابلنا دائماً في حقيقة أئمة أهل البيت، هل دعوا فعلاً إلى نظرية «الإمامة» وهل أرسوا قواعدها؟ أو بمعنى أدق: إن أهل السنة والشيعة تتنازعان دائماً آل البيت وكل من ناحية يورد أخباراً تؤكد وجهة نظره.

وقد جمع تلميذي الدكتور أحمد صبحي في بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية جملة من هذه الأحاديث المنسوبة إلى الباقر والتي أوردها رجال الشيعة كالحلي في «درر البحار» والكليني في «الكافي» وقام بتحليلها. وأهم هذه الأحاديث: أنه لما سئل «الباقر» عن الحاجة إلى الإمام فقال ليرفع الله العذاب عن أهل الأرض وذكر قول الله، «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» وقول الإمام الباقر أيضاً «لا تبقى الأرض يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ خلق آدم وأسكنه الأرض، وقيل له: أكان على حجة من الله ورسوله على هذه الأمة في حياة رسول الله؟ فقال: نعم يوم أقامه للناس ونصبه علماً ودعاهم إلى ولايته وأمرهم بطاعته. وسئل: أفكانت طاعة على واجبة على الناس في حياة رسول الله وبعد وفاته؟ قال: نعم، ولكنه صمت فلم يتكلم في حياة الرسول، وهكذا أنطق الشيعة الإمام الباقر بنظرية الإمام الصامت والإمام الناطق. فإن صح حقاً أنه دعا إليها، فقد دعا إلى نظرية أو وضع أساساً لنظرية من أدق النظريات الغنوصية والتي استخدمت لدى الإسماعيلية والغلاة فيما بعد.

(١) التوحيدي: فرق الشيعة ص ٢٧ . ٢٨ .

(٢) التوحيدي: فرق الشيعة ص ٣٤ وابن سعد: طبقات ج ٥ ص ٣٩٥ .

(٣) الشيباني: الصلة بين التصوف والشيعة ص ١٧٠ .

ثم يفسر الباقر الآية « واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » وهو ينظر إلى الحجيج يطوفون الكعبة فيقول : هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية ، إنما أمروا أن يطوفوا بها . ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم » أما أن الحجيج قطعان . يسيرون حول كعبة الله كسيرهم في الجاهلية . فما كان يخطر على إمام من أهل البيت يعلن في كل حين أنه لا يريد نصرة المسلمين له لتولى الأمر لقد اعتبر ولايته ولاية روحية لا صلة لها بمال ولا بجاه . أكان ينظر إلى المسلمين في حجهم هذه النظرة ؟ إنه أشبه بكلام القرامطة فيما بعد حين خاطبوا الحجر الأسود . وهم يضربونه « أيها الحجر كرم تعبد في الأرض وآل محمد لا يظهرون » إن النقد الداخلي للنصوص السالفة الذكر يثبت أنها موضوعة أو محرّفة كما أن نظرية العلم السري التي تنسب جرثومتها الأولى لمحمد الباقر لم تصدر عنه فيما يبدو . أما أخبار أهل السنة فقد ذكروا أنه سئل : هل من أهل البيت من أشرك بالله ؟ قال : لا . قيل : وهل منكم أهل البيت من يعتقد بالرجعة . ؟ قال : لا . وسئل : هل منكم أهل البيت - من يفض أبا بكر وعمر ؟ قال : لا . بل نحبها ونودها وندعو لها <sup>(١)</sup> . بل إنه يقول لجابر الجعفي : بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتلون من أبي بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك . فأبلغهم أني والله منهم بريء والذي نفس محمد بيده لو وليت . لتقربت إلى الله بدماهم . لا نالني شفاعة محمد إن لم أستغفر لها !! <sup>(٢)</sup> بل إنه يذكر أبا بكر بالصديق فلما سئل وثب واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة . ويقول : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . ويفسر قوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله) بقوله : هم أصحاب محمد ﷺ ، فقيل له : هو علي : قال : علي من أصحاب محمد ﷺ <sup>(٣)</sup> .

ولقد كانت زوجته وأم ابنه أكبر أئمة الإمامية - جعفر الصادق - هي أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق .

وأخيراً نأتى إلى صورة محمد بن علي في كتاب عالم سلفي حارب الشيعة وهو ابن تيمية . يقول : « أبو جعفر محمد بن علي من خيار أهل العلم والدين . وقيل إنما سمي الباقر . لأنه بقر العلم لا لأجل بقر السجود جيته » .

ويقول ابن خلكان : وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع ، والتبقر والتوسع يقول فيه الشاعر :

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لي على الأجل <sup>(٤)</sup>

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ .

(٣) ابن خلكان : وفات - ٢ .

(٤) ابن نعيم : حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٥ .

وهذا اختلاف ضئيل في تسمية محمد بن علي بالباقر مع الشيعة ، ولكن ابن تيمية ينكر ، كونه أعلم أهل زمانه ، إنه يرى أن هذا القول يحتاج إلى دليل ، ويرى أن الإمام الزهري وهو من أقران محمد بن علي ، هو عند الناس أعلم منه . ولكن ابن تيمية يعترف أنه أخذ الحديث عن جابر ، وأنه روى عنه عدداً كبيراً من الأحاديث الصحيحة ، ودخل على جابر مع أبيه علي بن الحسين بعد ما كبر جابر . وكان جابر من المحبين لهم رضى الله عنهم ، ويرى ابن تيمية أن الباقر أخذ الحديث أيضاً عن أنس بن مالك ، وابن عباس وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ، وعن سعيد بن المسيب وعبد الله بن أبي رافع كاتب علي . ثم روى عنه أبو إسحاق الهمداني وربيعة بن عبيد أبو عبد الرحمن والأعرج وهو أنس من محمد بن علي وابنه جعفر وابن جريح ويحيى بن أبي كثير والأوزاعي وغيرهم (١) وعمرو بن دينار (٢) .

هذه صورة لمحمد بن علي الباقر كتبها عالم من علماء السلف ، بل عالمهم الكبير المتأخر . وهي تدل دلالة واضحة على ما يمكنه من احترام كبير له كإمام من أهل البيت ، نشر العلم الإسلامي ، وأخلص لأعظم جوانبه وهو جانب الحديث ، وكان ابن تيمية محدثاً مشهوراً ، فوضعه لمحمد بن علي في نسق المحدثين العظام العادل يدل دلالة واضحة على ما كان للإمام الباقر من مقام علمي عظيم حتى في أوساط السلف وأهل السنة والجماعة .

أما إنكار ابن تيمية كون الباقر أعلم أهل زمانه ، فهذا اتجاه سلفي من عالم اشتهر عنه تحطئة الناس جميعاً ، حتى إمامه أحمد بن حنبل ، بل الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . ثم هو مزاج ابن تيمية الحار وهو يناقش ابن المطهر الحلي ، من عدم كون علي وأولاده دون الناس أصحاب العلم وورثة الأنبياء ، وإليه مرجع أمور المسلمين . وإذا كان ابن تيمية يذهب في كثير من أحكامه شططاً ، فإن الشيعة يفعلون نفس الأمر . ودعواهم دعوى عريضة ، ولكن «كون الباقر أحد أئمة الاثني عشرية» لم يمنع أيضاً ابن كثير الشافعي أن يقول عنه إنه «تابعي جليل ، كبير القدر ، أحد أعلام هذه الأمة علماء وعملاً وسيادة وشرقاً ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر . وذلك عنده صحيح في الأثر» ويذكر ابن كثير أن الباقر قال : ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاها ، رضى الله عنها ويذهب ابن كثير إلى أنه روى عن غير واحد من

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ .

الصحابة . كما روى عن جماعة من كبار التابعين : أى أنه كان من كبار رجال الحديث من أهل السنة (١) .

ثم أتى إلى موقفه من المعتزلة . لقد رأينا موقفه كمحدث ، وأهل الحديث في المدينة كرهوا «الكلام في الدين» واعتبروه مراءً . وأتى واصل بن عطاء إلى المدينة . وتلمذ عليه أخوه زيد بل سيطر واصل بن عطاء على زيد كما سنرى . وكره الباقر هذا كل الكراهية . وكان يقول لجابر الجعفي «يا جابر لا تخاصم ، فإن الخصومة تكذب القرآن» وهو يحدد الخصومة هنا بقوله «لا تجالسوا أصحاب الخصومات . فإنهم الذين يخوضون في آيات الله» وكانت مسألة الفاسق شغل المجامع الإسلامية فسأله جابر «أكان منكم أهل البيت أحد يزعم أن ذنباً من الذنوب شرك . . . ؟» قال : لا . (٢) «وهو يرى أن «شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه» ويؤكد ثانية كراهيته للكلام . حين يقول : «ياكم والخصومة فإنها تفسد القلب وتورث النفاق» الذين يخوضون في آيات الله هم أصحاب الخصومات (٣) ويورد الشهرستاني مناظرة جرت بين الباقر وأخيه زيد لأنه «كان يتلمذ لواصل بن عطاء ويقتبس العلم ممن يجوز الخطأ على جده في مقال الناكثين والقاسطين ومن يتكلم في القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت ومن حيث إنه كان يجعل الخروج شرطاً في كون الإمام إماماً . حتى قال له يوماً : على قضية مذهبك والدك ليس بإمام ، فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج (٤)» وتنب هذه المناظرة إلى جعفر الصادق ، وبخاصة أن خروج زيد كان بعد وفاة أبي جعفر الباقر ، ومن المحتمل أن الأخوين قد تناقشا بادئ الأمر ، وحاول الباقر أن يرد أخاه عن عزمه على الخروج .

ونرى ابن كثير يذكر أن محمد بن علي قال «القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق (٥)» وهذا نص خطير يثبت أن الإمام الباقر أزعه تماماً الأصل المعتزل : أن كلام الله مخلوق ولكن القول المنسوب إليه «أنه لاجير ولا اختيار» فمن الثابت أنه لابنه جعفر الصادق .

وأخيراً أتى إلى مسألة زهد الباقر وتصوفه ، فقد حاول الكثيرون من المتصوفة والزهاد وضع الباقر في سلسلة الزهد والتصوف . وحاولوا أن يثبتوا انتقال العلم اللدني إليه خلال البشارة بمولده . ولكن تحليل كلمة الباقر نفسها يثبت العكس تماماً فقد قيل له الباقر ، لأنه بقر العلم أى شقه ، وعرف أصله وخفيه وتوسع فيه (٦) والمقصود بالعلم هنا علم الحديث ، واستفاضت الآثار في أنه محدث ، وتابعي

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩-٣١١ . (٤) الشهرستاني: الملل ج ١ ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٢) ابن سعد: طبقات .. ج ٥ ص ٢٣ . (٥) ابن العماد: شذرات .. ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية .. ج ٩ ص ١١٣ . (٦) ابن كثير: البداية ج ٩ ص ٣٠٩ .

مدني ثقة بل ينقل ابن سعد عنه قوله «إنا آل محمد نلبس الخبز والجمعة والمعصرات والمصبرات (١)». وقال ابن حنيف: «رأيت أبا جعفر متكئاً على طيلسان مطوى في المسجد. وقال محمد بن عمر: ولم يزل ذلك فعل الأشراف وأهل المروءة عندنا. الذين يلزمون المسجد يتكثرون على طيلسان مطوية سوى طيلسانه وردائه الذي عليه (٢)» وقد أوردت هذه النصوص لكي أصل إلى أن محمداً الباقر لم يكن زاهداً. بمعنى اتخاذ الزهد نظاماً معيناً له قواعده وأصوله. وقد كره أيضاً زهد الغلاة. إنه إنما كان محدثاً عابداً أو زاهداً على طريقة أهل السنة.

ولكن نرى في الآن نفسه نصاً يقدمه لنا ابن كثير يقول فيه «وسمى الباقر لبقرة العلوم واستنباطه الحكم وكان ذاكراً خاشعاً صابراً. وكان من سلالة النبوة. رفيع النسب. على الحب. وكان عارفاً بالخطرات. كثير البكاء والعبرات معرضاً عن الجدال والخصومات» وينبغي أن نفسر النص في حدوده، وهي حدود عالم الحديث، فعالم الحديث الحق - سنياً كان أو شيعياً - له زهده الخاص، وهو يختلف عن زهد غيره. فهو يلتزم بالقرآن والسنة. ولا تبتغى معاني زهده من أي مؤثر خارجي مسيحي أو هندي أو فارسي أو غنوصي على الإجمال. إنه يتحرى الحديث تحرياً علمياً، ولا يتعبد إلا على ما ثبت له صدقه. فالذكر والخشوع والصبر ومعرفة الخطرات وكثرة البكاء والعباد كانت سمته لمحدثي الإسلام الحقيقيين. بل كانت سمته للمعتزلة، وكانوا أيضاً يتحرون الدقة الكبرى في الأخذ بالأحاديث. فكان زهد الباقر - إذا كان زاهداً - هو الزهد الذي عرفه علماء الحديث في الإسلام وعرفوا به. وفي ضوء هذا نستطيع بسهولة فهم أقواله في الفقر والزهد. فتفسير قوله تعالى «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا» الغرفة الجنة. بما صبروا على الفقر في الدنيا. ثم يذكر الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذكور. وقد يذهب الصوفية بعد ذلك إلى أنه يضع الذكر فوق الصلاة وهذا خطأ. إننا نرى ابن عباس - ولم يكن ابن عباس زاهداً - يقول نفس القول: لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذكور.

ثم يذكر جابر بن يزيد الجعفي عنه أنه قال له: يا جابر إني لمخزون وإني لمشتغل القلب. قلت: وما حزنك وما شغل قلبك؟ قال يا جابر: إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله عما سواه. يا جابر ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون؟ هل هي إلا مركباً ركبت؟ أو ثوباً لبسته أو امرأة أصبتها؟ يا جابر إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بأذانهم من الفتنة، ولم يعصمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار. إن أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة. إن نسيت ذكروك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين

(١) ابن سعد: طبقات... ج ٥ ص ٢٤٥. (٢) ابن كثير: البداية ج ص ٣١١.

بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث ترها ملكهم كمنزل نزلوه ، ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماه أصبته في منامك ، فلما استيقظت إذا ليس في يديك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته (١) ، وينبغي أن نلاحظ أن الكلام يبدو زهداً بلا شك ، ولكنه زهد من نوع خاص يبعده تمام البعد عن حركة الزهد العام التي عاصرنه إنه أقرب إلى الحكم وليس صادراً عن زفرة حرى ، كما نراها عند معاصريه من الزهاد ، إنه كلام محدث عابد معلم للمسلمين . ولا نرى كلمة الزهد على الإطلاق في كلامه أوحى حكمه . وكذلك نراه يتكلم عن الخطرات ، وهي ليست من نوع خطرات النفس عند الزهاد والصوفية ، بل يفسر بها اليقين فيقول « الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب ، فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرجه منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلباً شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثره (٢) .

ثم هو يتابع أباه في سن البكاء للمسلمين فيقول : ما اغرورقت عين عبد بماثا إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ، فإن سألت على الخدين ، لم يرهق وجهه قرو ولا ذلة ، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة فإن الله يكفر بها بحور الخطايا ولو أن باكياً بكى من خشية الله في أمة رحم تلك الأمة (٣) وقد استغل الصوفية فيما بعد كل هذا وأدخلوا الباقر في تيار الزهد العام . ونرى بشراً الخافي يقول : سمعت سفیان الثوري يقول : سمعت منصوراً يقول عن الباقر : الغنى والفقر يحولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أو طفاه (٤) « وأخيراً يقول الباقر : والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابده (٥) ، وهو بهذا يضع العلم فوق العبادة والحديث فوق الزهد .

أما ما تذكره كتب الشيعة من ناحية وكتب طبقات الصوفية من ناحية أخرى عن كون الباقر زاهداً ، فلا يثبت أمام النقد العلمي لوضع الباقر في إطار الزهد والتصوف فليس قوله « قال الله في الصيد . ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، فقتل الصيد أعظم أم قتل النفس التي حرم الله » (٦) قول متصوف هذا قول في كراهة القتل ، ولكنه يقول في نص يذكره صاحب الحلية ، كما يذكره أيضاً ابن كثير « إن الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مهدينا ، كان الرجل منهم أجراً من ليث وأمضى من سيف (٧) » وإذا كان النص الأول في الزهد (وهو ليس كذلك) ، فالنص الأخير

(١) ابن كثير: البداية . ج ٩ ص ٣٠٩ . (٥) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

(٢) نفس المصدر: نفس الصحيفة . (٦) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

(٣) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ . (٧) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ١٨٤ ؛ وابن كثير: البداية ج ٩ ص .

ليس زهداً . والنقد الباطني للنصوص يحتم علينا مع ذلك أن ننكر صدور هذا النص الأخير عنه ، فقد ذكر فيه مصطلح القائم ، وهو ما أنكره على أخيه زيد ، كما ذكر فيه المهدي - وهو مصطلح كان يستخدمه الغلاة من حوله ، وقد أنكر الغلاة ، وكان يقول : « شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه » ، وكان يقول : « اللهم إني أبرأ إليك من المغيرة بن سعيد وبيان » (١) .

وقد حاول الدكتور الشيبلي ببراءة أن يثبت زهد الباقر وصوفيته وأورد النصوص الكثيرة التي تؤيد فكرته : منها نص ابن حجر في الصواعق المحرقة الذي يقول فيه « وله من الرسوم في مقامات العارفين ما نكل عنه ألسنة الواصفين ، وله كلمات في السلوك والمعارف » ، ثم يحاول الشيبلي أن يثبت أن بذرة نظرية الحب الصوفي وجدت عند الباقر . ويورد عن فريد الدين العطار فكرة الملك أو السلطان الروحي ، وأن الباقر كان يقضى ليله وهو يردد في صوت عال « إلهي وسيدى ، حل الليل وانتهت ولاية تصرف الملوك وظهرت النجوم ونام الخلائق » ثم يورد الشيبلي حديث عبد الله بن المبارك الصوفي ( المتوفى سنة ١٨١ هـ ) المشهور عن تجلي عمده الباقر له - كتجلى الخضر لكبار الصوفية ، وأن محمداً الباقر أنشده :

فنحن على الحوض رواده نذوده ونسعد وراده  
فا فاز من فاز إلا بنا وما خاب من حينا زاده  
ومن سرنا نال منا السرو ر ومن ساءنا ساء ميلاده  
فن كان حقاً لنا غاضباً فيوم القيامة مبعاده (٢)

وأرى أن هذا تصوير الصوفية له ، ولكن ليست آراءه هو ، وأحوال الصوفية أنفسهم ينسبونها إليه ، وليست أحواله هو . إن نظرية الحب الصوفية لها بلا شك أصولها القرآنية ، ولابن تيمية نفسه نظرية خطيرة في الحب الإلهي ، ولكن الحب الإلهي أدى عند صوفية الحلول من ناحية وصوفية وحدة الوجود من ناحية أخرى إلى نظريات تخالف الحب الإلهي القرآني . وهذا ما نأى عنه أهل البيت جميعاً ، وزهاد الصوفية من السنة والشيعة جميعاً ، ولم يكن تطور هذه عن تلك .  
وأخيراً - لقد كان محمد بن علي الباقر أعظم مكان لدى أهل السنة والجماعة ولدى الشيعة . إنه لدى الأولين . إمام أهل البيت « وبقية فاطمة العظيمة في الدنيا ، ومحدث المدينة الكبير ، وكان هو الإمام الخامس لدى الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية .

(١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٢) الشيبلي : الصلة . ص ١٧٥ . ١٧٦ .

## الفصل الثالث

### الزيدية

#### زيد بن علي

لم يكن محمد الباقر أثر كبير في تطور العقيدة الشيعية ، لقد كان إماماً كبيراً من أئمة المسلمين . شغل بالعلم والحديث واحتل مكانه العظيم كمحدث ممتاز في كتب السنة وأهل الشيعة ، ولكن لم يكن له أبداً هذا الحماس الديني المشتعل الذي ينشئ حوله فرقة أو مذهباً أو يثير حركة ثورية في العالم الإسلامي ، كانت حياته رتيبة خالية من الإثارة ، وجاء الشيعة المتأخرون فحاكوا حوله الأسطورة ، ونسبوا له الولاية ، والعلم الإلهي الباطن الذي يستخرج به معاني القرآن الحقيقية ، واعتبروه في سلك الغنوصيين من أهل البيت . ولكن حين نتقل إلى بحث حياة أخيه الأصغر زيد وعقائده ، نجد سبلاً عارماً من الأخبار ، وحياة ديناميكية قابلت جميع الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية في عصره ، وقصة مشيرة أشد ما تكون الإثارة ، وحياة أشد ما تكون الحيوية .

ولد زيد بن علي لأبيه علي زين العابدين (عام ٨٠ هـ) عن أم سندية أهداها له المختار بن أبي عبيد . ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره فكفله أخوه الأكبر محمد الباقر وكان لمحمد الباقر ولد في سن زيد وهو جعفر الصادق . ويبدو أنه أخذ عن أبيه زين العابدين العلم في باكورة حياته ، ثم عن أخيه محمد الباقر بعد وفاة أبيه ، ولكن لم تظمن نفس الفتى العلوي الشغوف الطلعة إلى الحياة المدنية الرتيبة ولا إلى طريقة الحياة التي عاشها أبوه بعد محنة كربلاء ، وعاشها أخوه الباقر أيضاً متبعاً سنة أبيه علي زين العابدين . بدأ الفتى رحلاته إلى الكوفة ، ثم زارها مراراً . ثم مضى إلى البصرة ، يقابل علماءها ، ويناقش مفكرها وما أكثرها في ذلك الوقت . وفي البصرة قابل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . ويذهب الشهرستاني إلى أن «زيداً» تعلمذ علي واصل ، حين أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم » ويؤيد الشهرستاني هذا بمناقشة جرت بين زيد وبين أخيه الأكبر محمد الباقر يعتب الباقر فيها على أخيه أن يأخذ العلم عن واصل بن عطاء وهو ممن يجوز الخطأ على جده الأكبر علي في قتال التاكثين والقاسطين من أهل الشام ، ومن يتكلم في القلندر على غير ما يذهب إليه أهل البيت ، ومن

حيث إن زيدا كان يشترط الخروج شرطاً في كون الإمام إماماً. فقد قال له الباقر في أثناء المناقشة «على قضية مذهبك والدك ليس بإمام، فإنه لم يخرج قط، ولا تعرض للخروج»<sup>(١)</sup>.

وقد حاول العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة أن يثبت أن الإمام زيدا لم يتلمذ على واصل بن عطاء، وإنما ذكروه في آرائه وزامله فيها، وبخاصة أن واصل بن عطاء إنما أخذ مذهبه عن رجل من أهل البيت هو أبو هاشم بن محمد بن الحنفية<sup>(٢)</sup>، وسواء أصحت تلمذة زيد لواصل بن عطاء أم مذاكرته له في المذهب، فإن آراء المعتزلة كانت هي المرحلة الحاسمة في تفكير الفتي العلوي. لقد أتى إلى المدينة، وهو على معرفة تامة بكثير من أصول واصل. وها هو يناقش أخاه شيخ البيت العلوي فيها، ويكاد يعلن أن أباه لم يكن إماماً، بل كان في نظره رجل من صالحى أهل البيت، كما أن اعتناق زيد المذهب القدرى أقتضى محمداً الباقر. ومن الخطأ الشديد القول بأن على زين العابدين وابنه الباقر كانا قدرين. إنها كانا من رجال الحديث، وإذا صح أن الباقر هو أول من قال: لا جبر ولا اختيار، وإنما هو أمر وسط وتفويض، فإنه يكون إذن من سلف أهل السنة، وهذا الأمر الوسط هو في نهاية الأمر جبر. وأخيراً إن اشتراط الخروج في كون الإمام إماماً إنما هو نابع من أصل المعتزلة الخامس «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وقد كان هذا الفتي العلوي مخلصاً لآرائه وعقائده، فخرج على هشام بن عبد الملك، وقاز بالشهادة في طرقات الكوفة، كما فاز بها من قبل في الكوفة رأس البيت العلوي «على بن أبي طالب» وقد كان على مثل زيد الأعلى، وكما فاز بها أيضاً الحسين بن علي في كربلاء على أطراف الكوفة القريبة، بل مثل زيد بن علي مع هشام بن عبد الملك نفس قصة الحسين ابن علي مع يزيد بن معاوية. خرج الحسين بن علي على يزيد بن معاوية العاق، وقتله عامه على الكوفة عبيد الله بن زياد، ولم يسلم نفسه، بل مات تحت ظلال السيوف. وخرج زيد بن علي على هشام القاسي الظالم المتحجر، وقتله يوسف بن عمر الثقفي في كناسة الكوفة، ومات أيضاً بسهم، ولم يسلم نفسه. وكما خدع أهل الكوفة حيناً عليه السلام، خدعوا - هم أنفسهم - زيدا.

وقد كتب المؤرخون الصحائف الكثيرة عن تعرض زيد بن علي في حياته لأفطع أنواع الإهانات من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث. كان هذا الأخير يتدفع في عداوته ومؤامراته لأهل البيت، بل كان يدفع أعوانه لسب فاطمة الزهراء في مسجد أبيها في المدينة، بل يدفع بعضاً من آل البيت لانتقاص ابن عمهم الكبير زيد بن علي<sup>(٣)</sup>. والفتي العلوي ساكت على الضيم، كاظم للغيظ عاف عن الناس. ويضيق زيد بن علي بالوالى وبالناس، فيذهب إلى دمشق،

(٣) الكامل: ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨-٨٥.

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠.

(٢) الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة: الإمام زيد.

بطلب مقابلة هشام بن عبد الملك ، يشكو إليه ظلم عامله ، ولكن هشاماً الخليفة العاني - يتذكر كيف حيل بينه وبين الحجر الأسود في حجه وكيف وقف الناس إجلالاً لعل بن الحسين زين العابدين والد زيد وأفسحوا له المكان - فيرفض مقابلة زيد ، ولكن زيدا - وهو العالم الفقيه - أراد أن يخلى ضميره من خروجه على هشام . فأصر على مقابلة الخليفة فلما قابله . تناز الاثنان وفقد هشام عقله ، فقال له : « أنت الذي تنازعتك نفسك في الخلافة . وأنت ابن أمه » فرد زيد : « إن الأمهات لا يقعدن بالرجل عن الغايات وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحق صلى الله عليها وسلم . فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا . وجعله للعرب أبا . فأخرج من صلبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم . فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي » وقام وهو يقول :

شده الخوف وأزرى به كذلك من بكره حر الجلال  
منخسرق الحقيين. يشكو الوجي تذكره أطراف مرو حداد  
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد  
إن يحدث الله له دولة يترك آثار العدي كالرماد (١)

ومرة أخرى يستدعيه هشام بن عبد الملك ويأمره أن يشخص إلى والي الكوفة القاسي يوسف بن عمر الثقفي . فلما سأل زيد الخليفة عن سر تسييره إلى هذا الوالي القاسي أخبره هشام أن خالد بن عبد الله القسري ، والي هشام المعزول عن الكوفة ادعى لدى الوالي الخالي أنه ترك ودائع لدى زيد بن علي وداود بن علي بن عبد الله بن عباس ومحمد بن عمر بن أبي طالب - أي لدى العلية من بني هاشم - وأقسم زيد أنه لم يأخذ منه ودبعة ولا غيره ولكن هشاماً قال : لا أصدقك . وعجب ابن رسول الله ألا يصدق يمينه رجل من بني مروان ، وجده الأكبر كان طريد رسول الإسلام . ولكنه تمالك نفسه وقال له : لا توجه بي إلى عبد ثقيف يتلاعب بي . ولكن هشاماً أصر على أن يذهب زيد إلى الكوفة حتى يواجه بخالد بن عبد الله القسري المسجون . وخرج زيد يقول : « والله إنني لأعلم أنه ما أحب الحياة قط أحد إلا ذل » .

ويذكر اليعقوبي أن هشاماً خشي بعدها من سفر زيد إلى الكوفة فأرسل إلى يوسف بن عمر يقول له : « إذا قدم عليك زيد بن علي فاجمع بينه وبين خالد ، ولا يقيمن قبلك ساعة واحدة . فإني رأيتهم رجلاً حلو اللسان شديد البيان خليقاً يتمويه الكلام ، وأهل العراق أسرع شيء إلى مثله » وكان هشاماً أحس بخطورة زيد ، فأرسل إلى عامله يحذره منه .

وقدم زيد الكوفة ، فلما دخل إلى يوسف قال له : لم نقلتني من هند أمير المؤمنين . . . ؟ فقال

يوسف : ذكر خالد بن عبد الله أن له عندك ستمائة ألف درهم . ثم أحضر خالداً وهو في الحديد فقال له يوسف : هذا زيد بن علي فاذا ذكر مالك عنده . فقال خالد : والله الذي لا إله إلا هو مالي عنده قليل ولا كثير ، ولا أردتم بإحضاره إلا ظلمه . فتيين لزيد وللناس أن إحضاره لم يكن إلا لإهاتته وتحقيره ، وقد كان زيد حينئذ - وبعد وفاة أخيه - شيخ العلويين وكبيرهم .

وأراد زيد أن يبيت في الكوفة أياماً ، ولكن يوسف بن عمر قال له : إن أمير المؤمنين أمرني أن أخرجك من الكوفة ساعة وصولك . قال : فأستريح ثلاثاً ثم أخرج . فرفض يوسف أن يدعه حتى ساعة واحدة . فخرج زيد في حراسة جند يوسف حتى وصلوا إلى العذيب ، فانصرف الجند : ثم انكفأ زيد راجعاً إلى الكوفة . فاجتمع إليه من بها من الشيعة وبلغ يوسف بن عمر ، فوثب بينهم ، وكانت بينهم ملحمة ثم قتل زيد بن علي داخل الكوفة ونصبت رأسه على قصبه ثم حين ظهر ابنه يحيى بن زيد فأرسل الوليد بن يزيد إلى يوسف : وإذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل أهل العراق فأحرقه وانصفه في اليم نساءً فجمع وأحرق وذرى نصفه في الفرات ونصفه في الزرع وقال يوسف : والله يا أهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه في طعامكم وتشربونه في مائكم ، تلك هي القصة التي ذكرها اليعقوبي - أقدم مؤرخ شيعي - ثم ذكرها من بعده المسعودي وأضاف أنه خرج مع زيد القراء والأشراف وأن أهل الكوفة خذلوه وأنه تمثل حينئذ :

أذل الحياة وعز المات وكلا أراه طعاماً وبيلا  
فإن كان لا بد من واحد فسيري إلى الموت سيراً جميلاً

والأحظ على كلتا الروايتين محاولة تفسير خروج زيد بن علي بما لاقاه من عنت واضطهاد وبمن من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة ، ثم بما لاقاه من هشام وعامله على الكوفة يوسف بن عمر . وهذا خطأ ، فزيد بن علي إنما خرج لإثبات الأصل المعتزلي أولاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وثانياً : لكي يثبت للناس جميعاً - ولم يستخدم أبداً كلمة الشيعة - أن العلويين على أتم استعداد للشهادة في سبيل الله ، ولم يدع علويّاً آخر معه بل سار إلى الملحمة وحيداً مع ابنه يحيى ، وقتل هو وحده ، ونجا ابنه لكي يبدأ الجهاد من جديد بعد فترة وجيزة . وقد كان يعلم أنه ميت لا محالة في هذه المعركة ، وقد بشره أبوه بالشهادة من قبل ، وعرفه أنه المصلوب في الكناسة أي في كناسة الكوفة ، وكذلك أخوه محمد الباقر ، ويبدو أن المهدي أيضاً قد نسبت إلى زيد بن علي ، وأنه عرف بها ، ويذكر المسعودي أن شاعراً من شعراء بني أمية ذكر بعد مقتل زيد :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب<sup>(١)</sup>

ومكث زيد مصلوباً خمسين شهراً بكناسة الكوفة ، فلما ظهر ابنه يحيى في عهد الوليد بن يزيد - كتب الوليد إلى عامله بالكوفة أن أحرق زيدا بمخشبه ، وألاحظ أن المسعودي واليعقوبي لم يذكرنا إطلاقاً السبب في انهزام أصحاب زيد عنه في المعركة ولكن أبا الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين يقول إن زيدا « قد تعجل الخروج قبل الأجل الذي بينه وبين الناس ، وذلك لانكشاف أمره ، ومعرفة يوسف ابن عمر بموعد بدء الحركة . وقد استطاع يوسف بن عمر أن يحول بين السواد الأعظم من أهل الكوفة وبين زيد ، فلما نادى أبو الجارود بشعار زيد - يا منصور أمت - لم يوافه سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ، فسأل زيد عن الناس وكان قد بايعه من قبل خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان وجرجان والري . فلما أجيب زيد « هم محصورون في المسجد ، قال : « لا والله ما هذا لمن بايعنا بعدر » ويذكر أبو الفرج أنه حين اشتد القتال سأل زيد أحد عيون أتباعه من أهل الكوفة وهو نصر بن خزيمه ، فقال « أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية ؟ » - أي أنهم دعوه كما دعوا جده الحسين ، ثم انصرفوا عنه وأسلموه لعدوه - فقال نصر بن خزيمه : جعلني الله فداك ، أما فوالله لأضربن بسيفي هذا معك حتى أموت ، وقاتل زيد مع الفتة القليلة التي تابعته ، وهزم جند الخليفة ، حتى وصلوا إلى المسجد وصاح نصر بن خزيمه يناديهم « يا أهل الكوفة اخرجوا من الذل إلى العز وإلى الدين والدنيا : ولكن ما من مجيب بل إن فاطمة الزهراء نسب علناً ، ويسبها أهل الشام . وأهل الكوفة نظارة ينظرون فقط ، ولا يشاركون في قتال (١) » . فلم يكن إذن حصر الناس في المسجد هو السبب في تحلّي أهل الكوفة عن زيد ، ولكن أبا الفرج سكت أيضاً عن ذكر السبب ، مع أنه من الواضح تماماً أن هناك سبباً ما دعاهم إلى خذلانه .

أما مؤرخو أهل السنة والجماعة فيرون أن السبب في تحاذل أهل الكوفة عنه هو مذهبه الرئيسي في الإمامة « وهو جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل » ومعنى هذا أنه أقر بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان بل إن الشهرستاني نقل إلينا نص كلام زيد « كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة ، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين نائرة الفتنة وتطيب قلب العامة فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام لم يحف من دماء المشركين من قریش بعد والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر . كما هي - فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد - وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الإسلام والعرب من رسول الله ﷺ ، وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً والأفضل قائماً فيرجع إليه في الأحكام ، ويحكم بحكمه في القضايا (٢) » وأورد

(١) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٩٦-١٠٦ . (٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

نفس القصة ابن كثير<sup>(١)</sup> وغيرهما من المؤرخين . وقد تبن لشعبة الكوفة وهم فئات ثلاث ، - بقايا الكيسانية والغلاة وأتباع ابن أخيه جعفر الصادق - الخلاف الكبير بين عقائدهم وبين الأصل الذي ينادى به ، إن قوله بإمامة المفضول يهدم نظرية الوصاية وهي التي قام عليها أساس المذهب الشيعي في مختلف تطوراته . ولذلك رفضوه ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه ، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه فسميت رافضة<sup>(٢)</sup> . وهذا أول ظهور لكلمة الرافضة كمصطلح ينطبق على جمهور الشيعة أو ما عرفوا فيما بعد - بالشيعة الإمامية - أتباع جعفر الصادق كما أطلق على الشيعة المتأخرة الاثني عشرية .

وهناك دليل آخر يثبت ظهور هذا المصطلح إنما كان في عهد إمامه جعفر الصادق ، وإن كان أطلق الاسم هنا شخصية من الغلاة ، وهو المغيرة بن سعيد العجلي والتونجتي يذكر أن الشيعة وأصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد تبرأوا من المغيرة ورفضوه ، فزعم أنهم رافضة ، وأنه هو الذي سباهم بهذا الاسم<sup>(٣)</sup> وسواء أطلق اللقب زيد بن علي أو المغيرة بن سعيد فإنه يشير بوضوح إلى أتباع جعفر الصادق أو بالتالي ما يعرفون بالشيعة الإمامية . ومنذ ذلك الحين أطلق اسم الروافض على الشيعة جميعاً - اللهم إلا بعض فرق الزيدية التي أقوت بشرعية خلافة أبي بكر وعمر - فالروافض إذن إبان خروج زيد بن علي أنكروا عليه حركته في صورة نصح أحياناً ، كما فعل جعفر بن محمد في المدينة ، وكان جعفر بن محمد ينكر على زيد صلته بالمعتزلة أشد إنكار ، ووصل الأمر بينها إلى حد التلاحى الشديد بالكلام وذلك حين أتى واصل بن عطاء المدينة ، وذهب إليه جعفر بن محمد ينكر عليه آراءه ، بل مجئته إلى المدينة ، ويشترك زيد والزيدية مع جعفر الصادق وينسبون معارضة جعفر لواصل ابن عطاء في آرائه إلى حسده له . أنكر جعفر - متابعاً لأبيه - صلة زيد بواصل ثم أخلص له النصح في عدم خروجه . لاجرم بعد ذلك أن رفضه أتباع جعفر بن محمد - وأطاعوا دعوة يوسف بن عمر في الالتجاء إلى المسجد ، وأقاموا فيه لا يلتقون أذنأ إلى صحبة الحرب يطلقها زيد وثنته القليلة وقد سموا فيما بعد ، بأصحاب المسجد ، وأرسل إليه أيضاً - وهو يعنى قواه في الكوفة - عبد الله بن الحسن يشطه عن الموقعة ويقول له : « فإن أهل الكوفة نفخ في العلانية ، خور السريرة هرج في الرخاء خرع في اللقاء ، تتقدمهم ألسنتهم ، ولا تشابيحهم قلوبهم ، ولقد تواترت إلى كتبهم بدعوتهم ، فصممت عن نداءهم ، وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم ، يأسا منهم وإطراحاً لهم ، وما لهم مثل إلا كما قال علي بن

(١) ابن كثير : البداية ج ٩ ص ٣٣٠ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٠١ والبيهقي : تاريخ ج ٤ ص ٨٦٤ .

(٣) التونجتي : فرق الشيعة ص ٦٣ .

أبي طالب : إن أهلكم خضتم ، وإن حوربتم خورتهم ، وإن اجتمع الناس على إمامة طعنتم ، وإن أجبتم إلى مشقة نكصتم» (١) أرسل إليه عبد الله بن الحسن ينصحه وهو في مستهل المعركة ، يبائع له الناس ، ينصحه في الظاهر ، وكم جرعه عبد الله بن الحسن الغيظ في المدينة أمام والي هشام ودعاه بابن السندية وزيد يكظم غيظه ، ولا يظهر لبني هاشم غير المودة الصافية والإيثار الكامل . وكان عبد الله بن الحسن يكره خروج زيد ، لأمر في نفسه : هو إعداد ابنه محمداً ليكون مهدي الإسلام ، ولعله كره أن يأخذها زيد ، فيفوت عليه آماله في ابنه محمد .

ثم تأتي إلى الغلاة الغنوصيين ، وقد كره هؤلاء زيدا أيضاً ، فقد كان زيد على صلوات بواصل وواصل والمعتزلة أكبر أعداء الغنوصية . اجتمع كل هؤلاء في موقف عدائي تجاه زيد . ويرسل هشام إلى واليه يوسف بن عمر يقول له « إنك لغافل . وإن زيد بن علي غارز ذنبه بالكوفة يبائع له ، فألح في طلبه واعطه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله » .

وأريد هنا أن أصل إلى النتيجة القاطعة في حقيقة زيد بن علي . إنه لم يكن شيعياً على الإطلاق ، ولم تكن حركته للشيعية ، وإنما هي حركة إسلامية ، استهدفت الخروج على الإمام الظالم من عالم من علماء المسلمين يمتاز عن غيره من العلماء أنه من دوحه النبوة ومن أبناء علي عليه السلام . ويدعم رأياً هذا دعوته إلى أصحابه وهو يعلن الجهاد «إني أدعو إلى كتاب الله وستة نبيه ، وإحياء السنن وإمامة البدع فإن تسمعوا كان خيراً لكم ولي ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل» (٢) ثم كانت صيغة بيعته هي «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وستة نبيه ﷺ وجاهاد الظالم والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا النىء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ونصر أهل الحق ، أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قالوا : نعم ، وضع يده على أيديهم ويقول : عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ﷺ ، لتفنين بيعتي ، ولتقابلن عدوى ، ولتنصحن لي في السر والعلانية . فإذا قال المبايع : نعم ، مسح يده على يده ، وقال : اللهم اشهد (٣) فلم يكن إذن في بيعته وجهاده يذكر نصاً أو وصية أو حقاً إلهياً . وإنما كان رجلاً من أهل البيت ، ساد علماء المسلمين في عصره بعلمه وديانته ، «كان وهو شاب يذكر الله عنده فيغشى عليه حتى يقول القائل : ما يرجع إلى الدنيا» (٤) . وذكروا عنه أنه لم يهتك الله محرماً منذ عرف بينه من شماله ، وكانت أسارير النور في وجهه «ولذلك تابعه أهل النك ولا يعدلون به أحداً» ثم أصبح في العلم في أوجه ، أخذ أبو حنيفة ، وعدد كبير من العلماء عنه ، ثم كان بعد - فتى بني هاشم ، أشجع العرب قاطبة ، وابن فاطمة الزهراء ، ويقول عبد الله بن مسلم بن بابل : خرجنا مع زيد بن علي إلى

(٣) ابن الأثير : ج ٥ ص ٨٦ .

(١) ابن الأثير : تاريخ ج ٥ ص ٨٧ .

(٤) الاصفهاني : مقاتل . ص ٦٣ .

(٢) ابن كثير : تاريخ ج ٩ ص ٣٣٠ .

مكة فلما كان نصف الليل ، واستوت الثريا فقال : يا بابل أما ترى هذه الثريا أتري أحداً يناها ؟ قلت : لا . قال : والله لوددت أن يدي ملصقة بها ، فأقع إلى الأرض أوحث أقع ، فأنقطع قطعة قطعة ، وأن الله أصلح بين أمة محمد ﷺ وكان يدعى بمكة «حليف القرآن» (١) .  
وأخيراً - رأى عالم الإسلام الكبير أنه لا بد أن يخرج على الإمام الظالم ويخرج ، ولم يجاربه معه أحد من الشيعة .

وهنا تساءل من كان إذن أنصاره ورجاله . . . ؟ يمكننا أن نعدد هؤلاء الأنصار فيما يأتي :  
أولاً : جماعة من عيون أهل الكوفة ممن أحبوا آل البيت . وأخلصوا لهم كل الإخلاص ، لم تترج عقائدهم بالغلاة ، ولم تشبهم شائبة الغنوصية المنتشرة في أرجاء الكوفة ، ولم يؤمنوا بالرجعة ولا بعلم خاص ينسب للإمام ، وفي مقدمة هؤلاء معاوية بن إسحق الأنصاري وزياد الهندي ونصر بن خزيمة العبيسي ، كانوا أشرف الكوفة ، بايعوا زيدا وقتلوا بين يديه وصلبوا معه بكناسة الكوفة . وجماعة آخرون قاتلوا معه ولم يقتلوا ومنهم سعد بن خبث وسلمة بن ثابت .

ثانياً : التف حولة أهل العلم من الفقهاء ونقلة الآثار والفقهاء . عدد منهم أبو الفرج الأصفهاني : منصور بن المعتمر ، وأبا حنيفة الثمان . بل إن محمداً بن جعفر الصادق ، يقول : «رحم الله أبا حنيفة ، لقد تحمقت مودته لنا في نصرته زيد بن علي وقعل ابن المبارك في كتابه فضائلنا» (٢) ، فأبو حنيفة إذن ممن أيدوا زيدا وقد أمده بالسلاح والمال ، وكان يقول ، من يأت زيدا هو من فقهاء الناس . وتراه ينكر على عبد الله بن المبارك الزاهد المشهور إخفاءه لفضائل أهل البيت ، ومن المعروف أن أبا حنيفة تلمذ على زيد لمدة عامين . وسنراه أيضاً يمد إبراهيم بن عبد الله بن الحسين في ثورته على أبي جعفر المنصور حين خرج باسم الزيدية في البصرة فالمرجئية إذن وقفت في شخص رئيسها أبي حنيفة مع الزيدية (٣) .

ثالثاً : المعتزلة : كان زيد بن علي يضع في حيز العمل والتطبيق أصلهم الخامس «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» . وكان زيد من أصحاب واصل بن عطاء وقد أيده واصل كما أيده عثمان الطويل تلميذه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بل إن عثمان الطويل حين سئل : خرج هذا الرجل ، (أى إبراهيم بن عبد الله بن الحسين) وقعدتم عنه . فقال عثمان . ومن أخرجه غيرنا (٤) . فتورته زيد بن علي كانت ثورة إسلامية وخروجاً على خليفة دمشق هشام بن عبد الملك باسم الإسلام ، لا تمت إلى الشيعة

(١) أبو الفرج الأصفهاني : مقاتل الطالبين . ص ٩٤ . ٩٥ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٠٧ .

(٣) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

بسبب ، ولذلك وقفوا منها إما موقف الحياذ - كموقف جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن شيخي بنى هاشم - وإما موقف الخذلان ، كموقف شيعتهم في الكوفة ، وإما موقف الشماتة - كموقف الغلاة - ولم يأت به زيد بن علي بل حارب حرباً عنيفة في طرقات الكوفة ، وكان في متناول يده أن يقتل يوسف ابن عمر والى هشام بن الحكم ، وهزم جيش هشام مراراً ، ثم أصابه سهم فاستشهد ، ضارباً للمسلمين جميعاً أعظم المثل في التضحية بالنفس في سبيل العقيدة .

ومن الملاحظ أن الزيدية فيها بعد أصبحت علماً على شيئين :

أولاً : جهاد الأئمة لبنى أمية ولبنى العباس بالسيف ، فكل من خرج اعتبر زيدياً .  
ثانياً : العلم - إننا نرى أحد أعداء زيد بن علي وهو حى - عبد الله بن الحسن - يذكره بعد موته ، لابن زيد الحسين بن زيد . فيقول : « وإن أدنى آياتك زيد بن علي الذى لم أرفينا ولا غيرنا مثله » . ويقابله مرة أخرى في مصلى النبي فيردد له نفس الأمر « إني أدنى آياتك الذى لم يكن فينا مثله ، لا والله ما كان فينا مثله (١) » لقد قال عبد الله بن الحسن هذا ، بعد وفاة زيد ، وقد كان يسومه كما قلت من قبل الإهانة تلو الإهانة ويدعوه بابن السندية معيراً لزيد أن أمه هندية الأصل . ثم نرى الفرع الآخر وقد أنكره شيخهم جعفر الصادق ، يعلن على لسان علي الرضا « أن زيد بن علي كان من علماء آل محمد » . أما العلماء جميعاً فأجمعوا على علمه الفياض وفقهه الواسع وفي مقدمتهم أبوحنيفة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن أبي ليلى وهؤلاء كانوا من طبقته . أما تلامذته الذين أخذوا عنه ، فمنهم الفقيه المشهور منصور بن المعتمر ، وهو أحد رجال الصحيحين ، وهارون بن سعد العجلي ، وكان من شيوخ مسلم ، وسليمان بن مهران الأهمش الفقيه المحدث وغيرهم كثيرون . وقد نقل تلامذته العديدون علمه وفقهه إلى مختلف الأمصار الإسلامية ، غير أن أهم تلامذته هو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي ، وهو الذى روى « المجموع » في الفقه الزيدى وهو الذى ينسب إلى الإمام زيد ابن علي .

### آراء زيد بن علي في الإمامة والمهدية :

رأى زيد بن علي اختلافات الفرق في الإمامة : فالكيسانية تنادى بإمامة محمد بن الحنفية ومهديته ، وأنصار أخيه محمد الباقر ينادون بإمامته ، والغلاة تنادى بإمامة بعض آل البيت وبعض الدعاة من غير أهل البيت ، بل تعلن قدسيهم وألوهيتهم . والعباسية تنادى بإمامة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . والخليفة الأموى في دمشق يحكم بالحديد والنار دار الإسلام ،

وقد أخذ الملك غضباً . ورأى زيد أيضاً اختلافات الشيعة حول خلافة أبي بكر وعمر ، فمنهم السبابون الذين يسبونهم ، ومنهم المكفرون - الذين كفروا الشيخين لسلبهم علياً خلافة الرسول . ورأى الأئمة - أباه وأخاه - يتولونهم ، إن ظاهراً أو باطناً ، كما يقول أهل السنة والجماعة ، وإن تقية كما يقول شيعة . ورحل زيد إلى الكوفة وإلى البصرة يستمع لكل هذا ، ويقابل الناس في مجامعهم وحلقاتهم ، وانتهى آخر الأمر إلى مثال جده الأكبر علي بن أبي طالب وإلى سنته ، واستخرج منها أصل الزيدية الأول في الإمامة وهو «إمامة المفضول مع وجود الأفضل» فعلى أفضل المسلمين بعد رسول الله ، ولكن مصلحة الإسلام استلزمت تولية الإمامة لمن دونه في الفضل ، وهو أبو بكر ثم عمر . وهنا ينهدم - كما قلت - أصل من أصول الشيعة ، وهو النص على عليّ والوصية له ، وهذا أول اختلاف جوهرى بين آراء زيد بن عليّ والزيدية الخلفاء من بعده وبين الشيعة على مختلف فرقها ، ولقد رأينا كيف خذله شيعة الكوفة - وهو في مستهل المعركة - حين أعلن هذا الأصل . وكان شيعة الكوفة يتبرأون من الشيخين . ويبدو أن زيداً بن عليّ قد وضع هذا الأصل ونادى به ، لتبرير موقف جده علي بن أبي طالب من خلافة أبي بكر وعمر تبريراً واقعياً ، فقد قبل عليّ خلافة الشيخين ، وإن كان قد فعل هذا على مضض - كما تذكر بعض المصادر الشيعية - ومن المحتمل أيضاً أن يكون زيد بن عليّ أعلن هذا الأصل تورعاً ، فقد ثبت له - كما ثبت للمؤرخين جميعاً - أن خلافة كل من الصحاحين لم يشها دنيا على الإطلاق ، بل كانت خالصة للدين .

وأخيراً . . إن علياً هو الخليفة الرابع من خلفاء محمد صلوات الله عليه لا نزاع في ذلك ولا جدال . وهنا يقدم لنا زيد الأصل الثاني من أصوله وهو «الإمامة في أولاد فاطمة عليها السلام ولا تجوز إمامة في غيرهم» (١) . ولكن لا يجوز أن يكون واحد منهم بعينه إماماً ، بل «يجوز أن يكون كل فاطمي عدل زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة - أن يكون - إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين» (٢) . فلا وصية إذن ولا نص لا على محمد بن الحنفية ، كما تدعى الكيسانية ولا على أولاد الحسين خاصة ، كما تدعى الإمامية ، ومع أن هذا النص الوحيد من بين قواعد الزيدية ، تفوح منه رائحة التشيع ، إلا أنه لم يوافق هوى في نفوس فرقتي الشيعة الكبيرتين ، الكيسانية والإمامية ، وأغضب كلا منها ، فالكيسانية تؤمن بإمامة علوي ليس بفاطمي ، والإمامية تؤمن بإمامة الفاطميين الحسينيين فقط . واشتراط الخروج سيؤدى إلى إنكار إمامة زين العابدين والباقر ، وسيهدم نظرية الاثني عشرية كما سيهدم نظرية الإسماعيلية في سلسلة الأئمة لديهم . ولكن إذا كانت المصلحة

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

تقتضى إمامة المفضول من غير آل فاطمة ، فهل يكون هذا الشرط إذن غير واجب التنفيذ في بعض الأحيان ؟ لقد رأى هذا في أصله الأول - وهو ولاية المفضول - وهو بصدد والد الفاطميين جميعاً على بن أبي طالب ، ما دامت المصلحة ، فالمصلحة هي الأساس لا الأفضلية ، ولكنه رأى أن يضع بأصله الثاني «إمامة فاطمي عادل وخروجه» موضع التنفيذ ، فخرج ، ووضع بهذا سنة الخروج ، أو بمعنى أدق أصبح الزيدية فيما بعد «خوارج» أيضاً ، لا يؤمنون بعقيدة الشيعة الإمامية ، ومن العجب أن زيداً لم يمثل إجماع أهل البيت في خروجه ، فأخوه الأكبر ناه قبل وفاته عن الخروج ، بل تواترت الأنباء أن أباه وأخاه وعمه الأكبر محمد بن الحنفية كانوا ينهونه عن الخروج ، ويعذونه - يعلم غيبى - أن يكون قتيل الكناسة ومصلوبها ، ولكن الفقى الذى يؤمن بالمعقل ، كأصل للدين أبى وخرج ، واستن سنة الخروج .

وقد أداه النظر في حقيقة الأئمة من قبله إلى الأصل الثالث من أصوله وهو «عدم عصمة الأئمة» ولم يناد الأئمة أبداً بعصمتهم ، ولكن أتباعهم في الكوفة وفي المدينة فعلوا هذا ، ورأى زيد في رحلاته إليها كل هذا واستمع لآراء الغلاة وانتهى به الأمر إلى الإيمان بالاجتهاد وبالرأى واجتهد هو وقاس في فقهه ، وآمن بالعدل والتوحيد في عقائده ، فالإمام الفاطمي إذن في رأى الزيدية غير معصوم ولا علم لديه مخزون ، وإن كان تلميذه هرون بن سعيد العجلي هو الذى نقل لنا الجفر - كتاب الشيعة السرى - عن جعفر الصادق ، ولكن زيداً تلميذ المعتزلة كان عدو الغنوصيات وعدو فكرة العلم السرى . وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم اشترط كون الإمام فاطمياً ؟ إن زيداً يرى أن أبناء فاطمة هم أقرب الناس ، بنسبهم الطاهر إلى العدالة والسخاء والشجاعة وأنهم بنسبتهم إلى فاطمة الزهراء سيقفون أكثر من غيرهم عمود الدين وسنن الإسلام ، ولكن المصلحة أولى بالاعتبار من الأفضلية ، ومصلحة المسلمين أولى بالاعتبار من أولاد فاطمة عليها السلام ، فإذا كان الإمام غير الفاطمي عدلاً ، ولم يخرج فاطمى ، واستقام أمر المسلمين ، فلا ضرر ولا ضرار .

أعاد زيد أمر المسلمين إذن إلى المسلمين أنفسهم ، أهل الحل والعقد منهم ، أن يختاروا إماماً عادلاً ، فإذا تقدم «فاطمى» يتصدى للإمامة بالدعوة إلى نفسه كان على أهل الحل والعقد والموازنة بين من تقدم ، فإذا تقدم الفاطمى ، ولى أمر المسلمين ، وإذا تقدم غير الفاطمى ، كانت المصلحة في تقديمه . فليس هناك إذن شرط في الإمام سوى المصلحة ، وهي الأساس لا القرشية ولا الفاطمية . وهذا أيضاً اتجاه خارجى .

وأخيراً . . . تأتى إلى الأصل الأخير من أصول الزيدية في الإمامة وهو «تجويز خروج إمامين في

قطرين يستجمعان هذه الخصال ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة ، (١) وأعتقد أن هذا النص لم يصدر عن الإمام زيد ، بل وضعه الزيدية الذين تابعوا الإمامين محمداً وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن في نورتهما على المنصور ، حين خرجا في دولة هذا الأخير وقتلا . اللهم إلا إذا فسرنا النص تفسيراً آخر ، وهو تجويز الخروج والطاعة في الخروج ، بمعنى الثورة على الإمام الظلم ، فيجوز أن يقوم إمام من أئمة أهل البيت بالثورة على الظلم ، ثم يسلم أحدهما الأمر للآخر ، هذا تخريج بعيد ، ومن الأفضل القول بأن هذا الأصل لم يصدر عن زيد ، وهو القائل : والله لوددت أن يدي معلقة بالثريا فأقع على الأرض أو حيث أقع فأنقطع قطعة قطعة دون أن أصلح بين أمة محمد ، والإصلاح لن يكون إلا باجتماعها على رجل واحد .

وأخيراً . . هل نرى في فقه الزيدية السياسي مصطلح المهديّة ؟ أما أن زيدا أنكر المهديّة بمعنى الرجعة ، فواضح جداً من هذا الإمام المعتزلي العقلي ، فلا مهدي متظر ولا رجعة ، ولكن المهدي : هو الخارج على الظلم ، المجدد الفقهي وهو الذي يخرج مجاهداً في سبيل الله ليملا الأرض عدلاً ، فإذا كان زيد قد لقب بالمهدي ، ويبدو أنه كان يدعى بالمهدي في حياته وأشار إلى هذا شاعر بني أمية حين قال :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصب  
فالمقصود بالمهدي منسوباً إلى زيد ، من يقوم بهداية الناس ، ومجادلة الإمام الظالم .

#### آراء زيد الكلامية :

يحاول الشيعة المتأخرون - ما وسعهم الخيلة - أن يشبوا أن العدل والتوحيد ، إنما نشأ في رحاب البيت العلوي وأنه انبثق من علي أولاً ثم من محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم ثانياً ، ثم أخذ به الأئمة جميعاً حتى دخل في عقائد الأئمة الاثني عشرية . وهذا خطأ ، فعلى زين العابدين كان على عقيدة رجال الحديث في مسألة العدل والتوحيد ، كما كان ابنه محمد الباقر . أما الإمام جعفر الصادق فكان على عقيدة أهل السنة والجماعة في الجبر والاختيار . وكان تلامذته على خلاف مجمة كما سبى في الفصول التالية ، وكان هشام بن الحكم أكبر تلامذته من أشد أعداء المعتزلة . أما الاتصال الحقيقي بين المذهب المعتزلي وأئمة أهل البيت فكان على يد زيد بن علي . ولا شك أن زيدا قابلاً واصلاً وعرفه معرفة وثيقة في البصرة ، ثم قابله في المدينة . بل إن صلة واصل بزيد بن علي وبعبد الله بن الحسن قسمت البيت العلوي إلى قسمين ، وجعلت القسمين يتلاحقان بالألفاظ . ويقص لنا صاحب المنية

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

وصول واصل إلى المدينة ونزوله على إبراهيم بن يحيى. ومسارة زيد بن علي وابنه يحيى بن زيد وعبدالله بن الحسن وإخوته لمقابلته والترحيب به . فلما علم جعفر بن محمد الصادق بمسارة أهل البيت له واجتماع الناس عليه ، اصطحب جملة من أصحابه وذهب إليه والقوم من بني هاشم عنده ، فقال له جعفر : أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق والبينات والنذر وأنزل عليه ، « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » فنحن عتره رسول الله وأقرب الناس إليه ، وإنك يا واصل أنتيت بأمر يفرق الكلمة وتظعن به على الأئمة وأنا أدعوكم إلى التوبة .

فوقف واصل يرد عليه فقال : « الحمد لله العدل في قضائه ، الجواد بعطائه ، المتعالى عن كل مذموم ، والعالم بكل خفى مكتوم . نهى عن القبيح ولم يقضه ، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه ، وإنك يا جعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا ، فأصبحت بها كلفاً ؛ وما أتيناك إلا بدين محمد ﷺ وآله وصاحبيه وضجيعيه ابن أبي قحافة وابن الخطاب ، وعثمان . وعلى بن أبي طالب وجميع أئمة الهدى ، فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدق عنه تبؤ بأثمك » وتكلم زيد بن علي فأغلظ لجعفر أى أنكر عليه وقال : ما منعك من اتباعه إلا الحمد لنا (١) ، ويقول ابن المرتضى « كان زيد ابن علي لا يخالف المعتزلة إلا في المنزلة بين المرتضى » ويحاول ابن المرتضى - على عادة أهل الفرق في تحميل مذاهبهم لآل البيت « لا نقول إن جعفرأ أنكر على واصل القول بالعدل بل المنزلة بين المرتضى »

« وسئل جعفر عن القدر فقال : « ما استطعت أن تلوم العبد عليه ، فهو فعله ، وما لم تستطع فهو فعل الله ، يقول الله للعبد لم كفرت ولا يقول لم مرضت (٢) » .

ولكن إذا كان الخلاف بين جعفر وبين واصل هو في المنزلة بين المرتضى ، وكان هذا الخلاف هو بين زيد وبين واصل ، فلم أسرع جعفر إلى الحلقة ؟ ولم تلاقى زيد وابن أخيه ؟ إن الواضح تماماً أن الخلاف كان جوهر المذهب ، « وهو العدل والتوحيد » ومهما حمل جعفر من أقوال قدرية ، فالرجل كان على عقيدة أبيه محمد الباقر في الموقف المتوسط بين الجبر والاختيار ، وهو أقرب المذاهب إلى ما نادى به أهل السنة فيما بعد ، ومهما يكن الأمر ، فإن زيدا تابع المعتزلة في جوهر عقائدهم مع اختلافات يسيرة .

#### ١ - التوحيد :

ليس هناك نص واضح يثبت بأن زيد بن علي ذهب - موافقاً للمعتزلة - إلى أن الصفة عين الذات ، ولكن الشيخ المفيد يذهب إلى أن الزيدية تثبت الصفات التي جاءت في القرآن والسنة على

(١) ابن المرتضى: التية والأمل ص ٢٠ - ٢١ . (٢) ابن المرتضى: التية .

أنها ليست معاني غير الذات (١) وهذا أصل معتزلي ، وكان واصل بن عطاء أول معبر عنه . ولكن هل تكلم زيد في « التوحيد » ودعا إليه كما دعا واصل وهل دخل زيد في مناقشات الفرق ، وهل عنى رجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا الدقيق من الكلام ، أم قالت به الزيدية بعده - حين اعتنقت اعتناقاً كلامياً آراء المعتزلة ؟ إن الأستاذ الشيخ أبو زهرة يصل إلى رأى صائب حين يقول : « وإذا كان زيد يتفق في جملة من الآراء مع واصل بن عطاء ، وهذا رأى واصل في الصفات - أن الصفات عين الذات - فإنه يصح لنا أن نقول : رأى زيد في الصفات كان هو رأى واصل . وتفصيل ذلك الرأى أن الله تعالى يتصف بأنه حي قادر سميع بصير ولكن بذاته ، ومن غير قدرة زائدة على الذات - ولا سمع زائد على الذات - وذلك ليقادوا قول الحشوية . وليتقادوا قول النصارى الذين ادعوا أن الأقسام الثلاثة صفات للذات العلية (٢) .

وإذا كان العلم هو الذات ، والذات هي العلم ، والذات قديمة ، والعلم من حيث هو ذات قديم ، فلا بداء إذن في علم الله ، لأن البداء تغير ، والقديم لا يتغير ، والإرادة قديمة ، ولا تتغير الإرادة بتغير العلم ، كما يذهب من يقول بالبداء .

وقد تفرغ عن مشكلة قدم الصفات ، أو حدوثها . مشكلة قدم كلام الله أو خلقه وبالتالي فكرة قدم القرآن أو خلقه . وقد آمنت الزيدية بفكرة خلق القرآن ، ولكن لا يرد عن الإمام زيد نفسه شيء يس هذه المسألة لا من قريب ولا من بعيد ؛ فهل كره الإمام زيد الخوض فيها ، وقد رأى خالد بن عبد الله القسري - وقد كان على صلوات طيبة به - أن يجارب كل من يعتنقها ؟ فقتل بيان بن سمعان الحمصي وكان أول من نادى بها ، ثم قتل الجعد بن درهم ، وقد نسبت حركة خلق القرآن إليه (٣) .

## ٢ - العدل :

آمن زيد بن علي بالعدل ؛ بأن الله عادل في حكمه بمعنى أنه لا يجبر الناس على المعاصي ، وقد نسبت عقيدة العدل إلى أبيه علي زين العابدين من قبل ، وأنه نادى بها أمام يزيد بن معاوية . بعد مذبحه أبيه وإخوته وأهل بيته . فقد دعا يزيد بن معاوية علي بن الحسين وقال له : ما اسمك ؟ فقال : علي . قال : أولم يقتل الله علياً ؟ فأجاب زيد : قد كان لي أخ أكبر مني يسمى علياً فقتلتموه . فقال يزيد : بل الله قتله . قال علي : الله يتوفى الأنفس حين موتها (٤) . اتخذ القديرون من هذه القصة دليل على أن الإمام علي زين العابدين ليس جبرياً . ولكنهم اقتطعوا بقية المناقشة والتي يبدو منها يزيد

(١) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ . (٣) ابن قتيبة عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) محمد أبو زهرة : الأمام زيد ص ٢١٨ . (٤) ابن المرتضى : المنية ص ٧ ، ٨ .

قدرياً ، وعلى زين العابدين جبرياً . فإن يزيد يستطرد ويرد بالآية « ما أصاب من مصيبة فيما كسبت أيديكم » ويرد على زين العابدين « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نراها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » (١) . بل إن أهل العدل يذهبون إلى أن علياً نفسه كان من « أهل العدل » وأنه فسر القدر بمعنى الأزل والقضاء بمعنى الحكم التكليفي ؛ « فلا قدر حتماً ولا حكماً واجباً » ، فالقدر هو أنه يعلم علماً أزلياً ما نفعه ولكن لم يجرنا عليه وإلا « بطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد » والقضاء هو الحكم ، والإرادة هي أمر تخيير ونهي وتحذير . ولم يكلف مجبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً . وقضاهن سبع سماوات - أي جعلهن سبع سماوات ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » أي أراد ربك ، وواصل أخذ مذهبه في العدل عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية . وضع المعتزلة إذن آل البيت في نسق رجالهم وفي سلسلة مشايخهم ؛ ولكن كل هذا تخريج بارع فالمجبرة وضعوا نفس الأئمة في سلسلة مشايخهم ؛ ولكن من الثابت أن زيدا بن علي آمن بالعدل . فصله يواصل بن عطاء كانت صلة واضحة ، ولا شك أنه رأى المعاصي في البصرة ترتكب باسم القضاء والقدر ، فأنكر فكرة الجبر . وقد رأينا واصلاً يرد على جعفر بن محمد بن أخيه ، باسم الله العدل في قضائه ، بل يبدو أن أبا الخطاب الأسدي سأله عما يذهب إليه في هذه المشكلة فقال ، أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ومن المرجئة الذين طمعوا الفساق في عفو الله ، فزيد إذن ينكر المجبرة ، وقد دعاهم هنا بالقدرية ، كما ينكر أقوال المرجئة الخالصة الذين قالوا بأنه لا يضر مع الإيمان معصية وهو هنا قطعاً لا يقصد « إرجاء السنة » الذي نادى به صديقه وتلميذه أبو حنيفة بل « مرجئة البدعة » كما بينت في الجزء الأول من كتابي هذا .

### ٣ - الإيمان ومرتكب الكبيرة :

إن تبرؤ الإمام زيد بن علي من المرجئة يدعوننا إلى أن نبحث موقف زيد من حقيقة الإيمان وما يستتبعه من رأيه في مرتكب الكبيرة . فزيد يذهب مع المعتزلة إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فالمعاصي لا تنقصه والطاعات لا تزيده . إن الإيمان الصحيح يقتضي العمل حتماً . فالعمل والإيمان متلازمان فمن لا يعمل عاص ومرتكب كبيرة . وهذا يختلف عن رأى أبي حنيفة الذي يذهب إلى أن الإيمان لا تنقصه المعصية ولا تزيده الطاعة . لأنه حقيقة ثابتة في القلب (٢) . وإذا كان الإيمان

(١) ابن الرضوي : النبة ص ١٢ .

(٢) الشيخ أبو زهرة : الإمام زيد ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

لا يزيد ولا ينقص ، فما هو موقف زيد من مرتكب الكبيرة ؟ لقد وضعه واصل بن عطاء في المنزلة بين المتزلتين المشهوره ، وإرجاء الماصرية - أصحاب عمر بن قيس الماصر - وأبو حنيفة من رأيه ونظرائه (١) الحكم في مرتكب الكبيرة إلى الله ، إن شاء الله عفا برحمة من عنده ، وإن شاء عذب بما فعله الإنسان بكسبه ، وتعالى مرجئة البدعة وأعلنوا أن « الإيمان عقد بالقلب » وأن ما سوى ذلك لا يضر مع الإيمان ، فرتكب الكبيرة - ما دام مؤمناً - من أهل الجنة . ولكن زيداً يختلف مع كل هؤلاء ، ويختلف تماماً مع المعتزلة ، بل إن صاحب النية المعتزلي يقول إن الاختلاف الوحيد بين زيد وبين المعتزلة إنما كان في « المنزلة بين المتزلتين (٢) » لقد ذهب إلى عقيدة الجمهور وهي : أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان ولا اسم الإسلام ، بل يعذب حيناً من الدهر ثم مرده إلى الجنة (٣) .

تلك هي آراء زيد في المشاكل الكلامية التي كانت تشغل العالم الإسلامي في عصره . آراؤه بالإجمال مصبوغة بصبغة المعتزلة ، ولكن من المبالغة أن نقول - مع الشهرستاني - إن زيداً بن علي تتلمذ على واصل وأخذ الأصول عنه ، ونستنتج من هذا أن الزيدية - وكما يستنتج الشهرستاني أيضاً - صارت كلها معتزلة (٤) فلم يتفق زيد اتفاقاً تاماً مع معتزلة واصل . من المحتمل أن يكون الزيدية بعد زيد اعتنقوا المذهب المعتزلي جملة ، ولكن ليس من الصواب في شيء أن نقول : إن الزيدية أخذت بالفكرة المعتزلية ( التحسين والتقيح العقليين كاملة ) واعتنقتها ، إن المعتزلة تعلن أن الأشياء حسنة وقيحة في ذاتها ، وأن العقل بذاته يصل إلى الحسن والتقيح في الأشياء فالعقل هو مصدر التكليف أولاً ، والزيدية تذهب إلى أن « العقل قد يحسن ويقيح ويصل إلى ما في الأشياء من حسن وقيح ، ولكنها ترى أن العقل في علمه يحتاج إلى السمع ، وأنه غير منفك عن سماع بنه الغافل على كيفية الاستدلال وأنه لا بد في أول التكليف وابتدائه في العالم من رسول (٥) »

والإمامية تتفق مع الزيدية في أن العقل أيضاً ليس هو مناط التكليف الوحيد مع أنه قد يصل إلى الحسن والتقيح في الأشياء ، ولكن مناط التكليف هو السمع ثم نرى فكرة وجوب الأصلح على الله المعتزلة . تصادف هوى لدى الإمامية المتأخرة ، ولكن الزيدية ترفضها . وأخيراً ننهي من آراء زيد بالقول بأنه لم يؤمن بالتقية الشيعية ، بينما يعلن ابن أخيه على لسان

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣ .

(٥) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٤٤ .

(١) التوحيدي : فرق الشيعة ص ٧ .

(٢) ابن الرضوي : النية ص ٢٠ .

(٣) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٩٤ .

الإمامية «أنها ديني ودين آبائي». وهذا قاعدة أصل الخروج استمدته زيد بن علي أو تأثر فيه - علي الأقل - الخوارج ، ويلزم عنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما لم يؤمن بنسبة المعجزات إلى الأئمة ، وأنكر إنكاراً باتاً قدسيهم وعصمتهم . وأنكر فكرة الرجعة في تطوراتها وصورها المختلفة . ولقد خاض زيد بن علي في الفقه ، وأصوله . وقد ترك لنا كتاب المجموع «مجموع الحديث ومجموع الفقه» ، جمعه تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي . والمجموع هو أساس الفقه الزيدي . وقد تعرض جامعه لهجمات عنيفة من الإمامية ومن أهل السنة . ولكن الزيدية قبلت المجموع ، وإن كان قد خالفه في بعض المواضع إمام زيدي مشهور هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، والمذهب الزيدي يتسع لهذا ويقرر ضرورة الاجتهاد في المذهب .

## الفصل الرابع

### حركات الزيدية السياسية

لم يكن استشهاد زيد بن علي في الكوفة نهاية المطاف للحركة الزيدية ، بل كان هذا الاستشهاد في سبيل العقيدة ، داعياً إلى حركة استشهاد أخرى كانت العامل الأكبر في القضاء على الدولة الأموية المروانية ، فقد هرب يحيى بن زيد بعد مقتل أبيه إلى خراسان ، وهناك بقي مستتراً في خلافة هشام يطلق الأشعار في أبيه :

خليل عني بالمدينة بلغا      بني هاشم أهل النهى والتجارب  
فحقى متى مروان يقتل منكم      خياركم والدهر جم العجائب  
وحى متى ترضون بالحسف منهم      وكنتم أباة الحسف عند التجارب  
لكل قتيل معشر يطلبونه      وليس لزيد بالعراقين طالب (١)

ولما مات هشام بن عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، واستفاض ظلمه وفساده ظهر يحيى بن يزيد بخراسان مجاهداً ، منفذاً لمذهب أبيه « خروج فاطمي عادل سخي زاهد » طلباً للخلافة ، وكما قتل الأب قتل الابن . وكما صلب الأب في الكوفة ، صلب الابن . وذلك في عام خمس وعشرين ومائة . وقد أتى يحيى أناس من المحكمة ( فرقة من الخوارج ) يسألونه أن يخرج معهم فيقاتلون بني أمية ، فأراد لما رأى من نفاذ رأيهم وقوتهم أن يخرج معهم ، ولكن أصحابه نهوه أن يفعل وقالوا له « كيف نقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على عدوك ، وهم يبرأون من علي وأهل بيته ؟ » . وفي هذا دلالة على ما يشعر به الخوارج من اتفاق مع الزيدية في الخوارج على الإمام الظالم (٢)

وقد أثر قتله وصلبه فيما بعد في أهل خراسان ، ويقول المسعودي :

« أظهر أهل خراسان النباحة على يحيى بن زيد سبعة أيام في سائر أعمالها في حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بني أمية ، ولم يولد في تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمى يحيى أو يزيد لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه (٣) » وكانت هذه الملحمة في أرض خراسان سبباً هاماً في التضاف الخراسانيين حول أبي مسلم الخراساني ، وقيام « المسودة » أي شيعة العباسيين الراوندية بالضرورة الأخيرة للقضاء على دولة بني أمية . وأخيراً - تولى العباسيون الخلافة ، وآلت من السفاح إلى أبي جعفر المنصور . وهناك

(١) الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٣١ .

(٢) المسعودي : مروج . ج ٢ ص ١٨٥ .

(٣) الأصفهاني : مقاتل ... ص ١١٣ .

تحرك الزيدية أو بمعنى أدق آل البيت من ذرية الحسن متخذين الزيدية أساساً لقيامهم في وجه المنصور. إن عقيدة زيد في الإمامة هي خروج فاطمي عالم سخي . مجاهداً في سبيل الله . فلم يقصر زيد الإمامة على أولاد الحسين بل أشرك فيها أولاد الحسن ، وسرعان ما تلقف هذا عبد الله بن الحسن ابن الحسن ، وقد كان على عداوة بينة مع زيد بن علي في أثناء حياته ولكنه آمن بآراء زيد بعد استشهاداه وكان الرجل قد أعد ابنه محمداً بالمدينة للإمامة وقد تلقب بالمهدي وبالنفس الزكية ، كما خرج ابنه الآخر إبراهيم بالبصرة ، وهم أيضاً ينفذون ما نسب إلى الزيدية من جواز خروج إمامين فاطميين عادلين في وقت واحد ، وقد قتل الاثنان عام ١٤٥ هـ . وفيهم يقول دعبل بن علي الخزازي :

مدارس آيات نخلت من تلاوة      ومنزى وحى مقفر العرصات  
قبور بكوفان وأخرى بطيبة      وأخرى بفتح نالها صلواتي  
وأخرى بأرض الجوزجان محلها      وأخرى بياخرا لدى الغربات  
فأما المضضات التي لست واصفاً      سبالغها منى بكنه صفات  
قبور لدى النهرين من أرض كربلا      معرسهم منها بشط فرات

قلت إن عبد الله بن الحسن وكذلك أخاه الحسن بن الحسن قد اعتنقا مذهب الزيدية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) . وقد أعد عبد الله بن الحسن ابنه محمداً كما أعد ابنه إبراهيم للخروج . وكانت المعتزلة قد تكونت فعلاً كحزب سياسي ، وقد أثرت المعتزلة في زيد بن علي - كما قلنا - ، وخرج منفذاً لأصلها الخامس وما لبثت المعتزلة أن سيطرت على يزيد بن الوليد ، فخرج يزيد ابن الوليد على أبيه الوليد « وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقه من المعتزلة وغيرهم على الوليد لما ظهر من فسقه وشمل الناس جوره . وكان يزيد يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه في الأصول الخمسة » ويرى المسعودي أن المعتزلة تفضل يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز (٢) .

ولكن يزيد بن الوليد لم يعيش في خلافته سوى خمسة أشهر وليلتين ثم مات ، ورأى المعتزلة أن يتجهوا إلى آل البيت ، بعد أن عاد الأمر إلى المروانية يحكمون بالنار والحديد ويشيعون الظلم والفسق والفجور في العالم الإسلامي . وفي الأبناء اجتمع بنو هاشم وبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن وبايع معهم أبو جعفر المنصور ما عدا الإمام جعفر الصادق الذي أتى أن يبايع ، وأخبرهم أن محمداً وإبراهيم سيقتلان في خروجها وأن الأمر لبني العباس .

ويذكر الأصبهاني أن أبا جعفر المنصور كان قد عقد لمحمد بن عبد الله بن الحسن في ناس من

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبين . ص ١٣١ : ١٣٢ .

(٢) المسعودي : مروج ... ج ٢ ص ١٩١ إلى ١٩٣ .

المعتزلة . ولكن يبدو أن المعتزلة انقسمت فيما بعد حول بيعة أبي جعفر المنصور محمد بن عبد الله الحسن ، فقد دعا محمد بن عبد الله الحسن عمرو بن عبيد لبيته فأبى « وكان عمرو حسن الطاعة في المعتزلة ، خلع نعله ، فخلع ثلاثون ألفاً نعالهم » (١) وكان يقول : « لا أبايع رجلاً حتى أختبر عدله » فالمعتزلة إذن لم يقفوا جميعاً بجانب محمد بن عبد الله بن الحسن في خروجه على أبي جعفر المنصور (٢) . وقد حفظ أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد هذه المنة . وفي الحقيقة إن حركة محمد بن عبد الله كانت أشبه بحركات الخوارج ، وقد دعا المنصور محمد بن عبد الله بالخارجي في حديث له مع أبي مسلم العقيلي (٣) . بل إن عبد الله بن الحسن نفسه كان صديقاً ليسير الخارجي (٤) .

فحركة محمد بن عبد الله كانت مزيجاً من عقائد معتزلية ، فمن الثابت أنه تتلمذ هو وجماعة من بني طالب على أبي أيوب بن الأوير داعية واصل بن عطاء ورسوله للمدينة (٥) . ثم اعتنق مذهب الزيدية في الإمامية ، ثم مزج كل هذا بفكرة الخوارج في الخروج وعدم التقية . وقد أوهمه أبوه وأهل بيته أنه مهدي الزمان وأنه سيخرج فيملاً الأرض عدلاً ، وحاول جعفر الصادق بكل جهده أن ينههم عن هذا ، وتنبأ لهم بقتله وقتل أخيه فنسبوه إلى الحسد والمقت لها .

ومنذ صباه أخذ الفتى يتوارى ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه ويعلن أنه المهدي . وأنكر عمرو بن عبيد على محمد دعوته ، وكان هذا سبباً في انقراض الناس من حوله ، ويبدو أن محمد بن عبد الله لم يكن قدرياً خالصاً ، بل إنه كان يدعى الاعتزال « لاشتغال الناس » أي لجمع الأنصار (٦) . ثم اختلف الشيعة أيضاً في خروجه ، فكثير من أتباع جعفر الصادق لم يجاروا مع محمد بن عبد الله وإن كان موسى وعبد الله ابني جعفر الصادق قد شاركا في القتال مع محمد ، وانقسم أولاد زيد بن علي قسمين . البعض مع أبي جعفر المنصور والبعض في رجال محمد بن عبد الله . كما انقسم أيضاً الفقهاء غير أن العدد الكبير منهم مشارك في الخروج . كإبن هرمز الفقيه المشهور وكذلك محمد بن عجلان فقيه المدينة ورائدها ومالك بن أنس . وقد سأله أهل المدينة عن بيعتهم لأبي جعفر المنصور فأفتى « إنهم بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين » فأسرع الناس إلى مبايعة محمد بن عبد الله (٧) وعدد كبير آخر من كبار المحدثين والفقهاء كالمنذر بن المنذر وأبو بكر بن أبي سيره وعبد الله بن عطاء وأولاده السبعة وعبد الرحمن بن أبي الموالى وأبوسفيان الثوري وهو القائل « وهل أدركت خيار الناس إلا الشيعة » وقد أعطانا سفيان الثوري سر انصراف الناس عن محمد بن عبد الله « إلا أن قوماً من هذه الرافضة وهذه المعتزلة قد

- |  |  |
|--|--|
| (١) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ١٤٨ . | (٥) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ١٦٥ . |
| (٢) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ١٤٥ . | (٦) نفس المصدر : ص ١٧٢ .               |
| (٣) المسعودي : مروج ج ٢ ص ٢٣٧ .        | (٧) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ١٩٥ . |
| (٤) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ١٦٢ . |  |

بغضوا هذا الأمر للناس<sup>(١)</sup> فكثير من أهل السنة إذن الذين كانوا يكرهون حكم العباسيين - كما كرهوا حكم الأمويين - لم تظمن أنفسهم إلى القتال مع طوائف متباينة التفت حول محمد بن عبد الله ، غير أن الاسم الذي غلب على أنصار محمد بن عبد الله بن الحسن هو الزيدية ويقول المسعودي « وقتل معه من الزيدية من شيعة أربعائة رجل »<sup>(٢)</sup> .

وكما فشلت حركة الزيدية في الكوفة أولاً وفي المدينة ثانياً - والبلدتان كما نعلم موطن الشيعة - فإننا نجدتها تقوم في بلد اشتهر بأموته وبعثانيته ، وهو البصرة . ولعل البصرة وجدت منفذاً لهذا - أي منفذاً من الحكم الهاشمي العباسي ، وفي حركة مضادة - وإن كانت أيضاً من علوى - وقامت الزيدية في البصرة مع الابن الثاني لعبد الله بن الحسن وهو الإمام إبراهيم بن عبد الله بل خرج إليه جماعة من الكوفة من أصحاب زيد بن علي متكرين في زى الحجاج حتى لحقوا به بالبصرة وعلى رأسهم مسلم بن أبي واصل (الخداء)<sup>(٣)</sup> . وكان إبراهيم بلا شك أقوى بيانا وأكثر شجاعة من أخيه محمد بن عبد الله وأجابه وجوه أهل البصرة ، وفتيان العرب فيها . ووقف إبراهيم يخطبهم فقال : يا أهل البصرة لقيم الحسنى . آوئتم الغريب ، لا أرض ولا سماء ، فإن أملك فلکم الجزاء وإن أهلك ، فعلى الله عز وجل الوفاء » يقول الأصبهاني « فجعلت الزيدية هذه الكلمة ندبة تندبه بها بعد قتله ، مشبيهاً بالنوح » ولكن إبراهيم أيضاً اختلف مع الزيدية ، فقد أتى عيسى بن زيد إلى البصرة ، ودعى الزيدية إلى إمامته فأجابوه إلى هذا ، ولكن أهل البصرة - وهم سنة وجماعة - لم يوافقوا على إمامة عيسى بن زيد فانفق عيسى بن زيد وإبراهيم على قتال جعفر ، حتى إذا تم لهم النصر نظروا في الأمر . ثم ما لبث أن اختلف الاثنان<sup>(٤)</sup> فقد صلى إبراهيم على جنازة بالبصرة فكبر عليها أربعاً ، فاعترض عليه عيسى بن زيد بن علي ، قائلاً « لم نقصت واحدة ، وقد عرفت تكبير أهلك ؟ » فقال : « إن هذا أجمع للناس ونحن إلى اجتماعهم محتاجون وليس في تكبير تركتها ضرر إن شاء الله » فغضب عيسى واعتزله وقتاً ما ، وبلغ الأمر المنصور فأرسل إلى عيسى يطلب منه أن يجادل الزيدية عن إبراهيم<sup>(٥)</sup> ولكن عيسى بن زيد تروى في الأمر وما لبث أن عاد للقتال مع إبراهيم .

ونستنتج من هذا أن الزيدية كانت فئة قليلة في البصرة ، وأن إبراهيم أراد أن يجذب إليه أهلها ، وكانوا أهل سنة وجماعة ، فكبر أربعاً ، وهي عادة السنة ، فاعترض عليه عيسى بن زيد وهذا ما فت في عضد الزيدية ولا شك أن خذلان هذا البعض من الزيدية لإبراهيم - إن صححت الرواية - كانت

(٤) الأصبهاني : مقاتل الطالبيين . ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٥) الأصبهاني : مقاتل ... ص ٢٤٩ .

(١) الأصبهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢١١ .

(٢) المسعودي : ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٣) الأصبهاني : مقاتل ... ص ٢٣٩ .

عاملاً من عوامل هزيمته ، وكان أيضاً من عوامل هزيمته أن أهل البصرة لم يدافعوا يقين كامل عن أحقية إبراهيم في الخلافة والإمامة .

كما أن كثيرين من أهل السنة لم يتابعوه فرفض خالد بن عبد الله الواسطي شيخ أهل السنة والجماعة إعلان بيعته ، كما كان يكره أهل البصرة بعضاً من رجاله وبخاصة الفضل بن محمد الضبي ، وكان يستغل قيام إبراهيم بالدعوة إليه في بيته ، فيحتال لنشر المذهب الشيعي خلال إقامة إبراهيم لديه ، ولكن إبراهيم كان زاهداً عابداً فتابعه عباد البصرة وقراؤها وفقهاؤها ، ولم يتابعه جمهور البلدة ، وحين قامت الحرب وأصابه سهم غائر ، كما أصاب زيد بن علي في طرقات الكوفة من قبل ، طافت به البقية من الزيدية التي ثبتت معه وأكبوا عليه يقبلون يديه ورجليه ويقاتلون دونه لا يبالون . وقد ترك لنا أبو الفرج الأصفهاني ثبناً طويلاً بأسماء المحدثين والفقهاء والرواة الذين شاركوا إبراهيم خروجه : وعلى رأسهم أبو حنيفة وزفر بن المذليل تلميذ أبي حنيفة المشهور ، بل إن زفر يقول : « إن أبا حنيفة كان يجهز في أمر إبراهيم جهزاً شديداً ويفتي الناس في الخروج معه » فقلت له : والله ما أنت بمتته عن هذا حتى توفي ، فتوضع في أعناقنا الحبال » بل إن أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم هو ومسر بن مكdam ، « يدعوانه إلى أن يقصد الكوفة ويضمنا له نصرتها وإخراج أهل الكوفة معه فكانت المرجئة تعبه بذلك » (١) وكان يقول : إن القتل مع إبراهيم يعدل القتل (لوقتل الإنسان يوم بدر) ، والشهادة مع إبراهيم خير للإنسان من الحياة (٢) . وكان مسر بن مكdam زعيم مرجئة الكوفة . وقد عاتبته المرجئة كما عاتب أبا حنيفة لدعوتها لإبراهيم وبدوا أن الزيدية كانت قد قويت في الكوفة وقد ذكر أبو حنيفة في كتابه لإبراهيم أن الزيدية في الكوفة على استعداد للقضاء على المنصور فيها . وقد قيل إن المنصور لأجل وقوفه مع إبراهيم في حركته . وأيده أيضاً عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء والأزرق بن تمة من أصحاب عمرو بن عبيد (٣) .

وبصف لنا الأشعري في مقالات الإسلاميين حركة إبراهيم فيقول : « ثم خرج بعد محمد بن عبد الله أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالبصرة ، وغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد ، وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى بن زيد بن علي ، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم فحاربا إبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه (٤) وهذا يبين حقيقة الزيدية للمرة الثالثة - مجموعة من القراءة والعباد والفقهاء ، مع فئة من الزيدية وفئة من المعتزلة وكان أمر الزيدية بعد إلى عيسى بن زيد ، بنص

(١) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) الأصبهاني : مقاتل ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٤٤ و ص ٢٤٦ .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٥٧ .

من محمد بن عبد الله ، فإن محمد بن عبد الله جمع إليه وجوه الزيدية ، ومن حضر معه من أهل العلم وعهد إليه إنه إن أصيب في وجهه ذلك فالأمر إلى عيسى بن زيد وكان عيسى «أفضل من بقي من أهله ديناً وعلماً وورعاً وزهداً وتقياً وأشدهم بصيرة في أمره ومذهبه مع علم كثير وكان محدثاً - طلعة في كل مكان - وروى عن أبيه وجعفر بن محمد وأخيه عبد الله بن محمد سفيان الثوري والحسن بن صالح ومالك بن أنس وغيرهم من كبار المحدثين» (١) .

وقد اختلف عيسى كما رأينا مع إبراهيم - وفي رواية أنه اعتزل عنه وفي رواية أخرى أنه قاتل معه حتى مقتل إبراهيم ، وأراد الزيدية أخذ العهد له - ولكنه أبى - وتوارى ، يتدارس العلم والحديث والسيرة ، ويقابل في تواريه أهل الحديث من الزيدية في الكوفة والمدينة ومكة حين يأتي للحج متكرراً وبعد لحركة زيدية خطيرة وقد عرف باسم «موتم الأشبال» لقوته الحارقة ، ثم طلب منه الزيدية الخروج بعد مدة وفي حكم المهدي العباسي ، وكان الحسن بن صالح من رجال الكوفة وصاحب ديوانه وفي بيته نزل عيسى . وقال له الحسن بن صالح يوماً : «حتى متى تدافعنا بالخروج ، وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل ؟» فقال له عيسى : «ويحك أتكثر على العدد وأنا بهم عارف ؟ أما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائة رجل أعلم أنهم يريدون الله عز وجل ويبدلون أنفسهم له ويصدقون للقاء عدوه في طاعته لخرجت قبل الصباح حتى أبلى عند الله عذراً في أعداء الله وإجراء أمر المسلمين على سنته وسنة نبيه» ولكنه رفض . وهو يعلم يقيناً أن قلوب الناس معه وسيوفهم عليه ومع أعدائه . . . وكان دعواته يعملون وكان صاحبه الحسن بن صالح هو الذي ينشر الدعوة مع ثلاثة من أشهر أتباع الزيدية هم ابن علاق الصيرفي ، وحاضر مولى زيد ، وصباح الزعفراني وطلبهم المهدي ، فتوارى ابن علاق وصباح ووقع حاضر في يدي المهدي ، فاستجوبه عن مكان عيسى ، فأبى أن يدلّه عليه ، فقتله ، واختفى الآخرون . فلما مات عيسى قال صباح للحسن بن صالح «أما ترى هذا العذاب والجهد الذي نحن فيه بغير معنى ؟ ! قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله وإنما نطلب خوفاً منه ، وإذا علم أنه مات ، آمنوا وكفوا عنا . فدعني آتي هذا الرجل - يعني المهدي - فأخبره بوفاته حتى نتخلص من طلبه لنا وخوفنا» . فقال الحسن بن صالح : «لا والله لا نبشر عدو الله بموت ولي الله ابن نبي الله فوالله ليليلة بيبيها خائفاً منه أحب إلى من جهاد سنة وعبادة بها» وهذا يدل على أن الحركة الزيدية في الكوفة كانت تعمل عملها في الحفاء وتستعد لضربها القادمة وأن الإمامية لم تكن المسيطرة عليها . ولكن قضى على الحركة وفاة عيسى بن زيد - وقد كان عيسى من أخطر رجال الحركة الزيدية - ثم مات صاحبه الحسن بن صالح بعد وفاة

(١) الأشمري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الأصبهاني : مقاتل : ص ٢٧٢ .

الإمام عيسى بشهرين . وذهب صباح الزعفراني داعية عيسى بن زيد إلى بغداد - ومعه ابنا عيسى بن زيد «أحمد ، وزيد» - وطلب مقابلة الخليفة المهدي ، وتين لنا المقابلة إلى أي مدى ذهب زيود الكوفة في حب زيد وأولاده فقد أخبر صباح الخليفة أنه إنما أتى ليضع ولدى عيسى بن زيد وهو ابن عمها ، لكي ينشأ نشأة طيبة صالحة ، وأنه لا يأبه هو نفسه بعقاب الخليفة ولا يريد جزاء منه ولا مكافأة ، ولولا كبر سنه وفقره لما أتى إليه بها . وسر المهدي العباسي وعاش الطفلان في أكتافه . وقد بقي أحمد بن عيسى إلى خلافة الرشيد وتسلق وترهد وكان الزيدية يجتمعون إليه ، فأخذ الرشيد وجهه مدة ولكنه تخلص من الحبس ، وتوارى .

وانتشرت الزيدية في بغداد ، فقد قام فيها أيضاً علي بن العباس من ولد الحسن بحركة زيدية ، ولكن المهدي العباس قضى عليها ، وسجن علي بن العباس ثم سمه . غير أن المهدي العباسي لم يبلغ مبلغ أبيه في معاملته القاسية لبني الحسن فلما توفى وتولى ابنه موسى الهادي بدأ ولاته بإيحاء منه ، يعاملون بني طالب أسوأ معاملة ، وقام الحسين بن علي بن الحسن والمعروف «بصاحب فخ» بحركة زيدية أخرى بعد أن تحمل من عامل الهادي بالمدينة هو وأهل بيته أشد أنواع المهانة والاضطهاد . وخرج الحسين مع جماعة من بني الحسن إلى مكة يدعون إلى «الرضا من آل محمد» ، وق فخ قابلتهم جيوش العباسيين وقتلهم واحداً بعد واحد . ومن العجب - أن موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق نهاهم عن الخروج . كما فعل أبوه من قبل مع محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم ، بل أخبرهم : أنهم مقتولون بفخ<sup>(١)</sup> وحين يذكر عيسى بن عبد الله قصتهم واستشهادهم العظيم في وادي الحجاز ، يشير إلى أنهم «هيجوا» أي أرغموا على الخروج حين عم ظلمهم وظلم الناس .

فلا	بكين	على	الحسين	بعولة	وعلى	الحسن
وعلى	ابن	عاتكة	الذي	أثوره	ليس	بذي
تركوا	بفخ	عدوة	في	غير	مترلة	الوطن
كانوا	كراماً	هيجوا	لا	طائشين	ولا	جين
غسلوا	المذلة	عنهم	غسل	الثياب	من	الدرن
هدى	العباد	بجدهم	فلهم	على	الناس	المن

ثم خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب على الرشيد وكان يحيى أخذ العلم عن جعفر الصادق ، وشارك في حركة الحسين شهيد فخ . وذهب يحيى إلى الديلم وتابعه بعض زيدية الكوفة من الزيدية البتية ، وهم - كما سنرى بعد - يتولون أبا بكر وعمر . ثم عثمان في ست سنين من إمارته ،

ثم يكفرونه في باقي عمره وقد اختلفت الزيدية البتيرة مع يحيى . واضطر يحيى إلى مصالحة الرشيد - بعد أن أعطاه أماناً ولكن ما لبث الرشيد أن حبسه ثم قتله - في قصة طويلة مؤلة (١) .

وتظهر الزيدية مرة أخرى مع إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقد أفلت إدريس من واقعة فنج وهرب إلى المغرب . وهناك تبعه هارون الرشيد - ويذكر الأصبهاني أن يحيى بن خالد البرمكي دعا إليه سليمان بن جرير الجزري وكان من متكلمي الزيدية البتيرة ومن أولى الرياسة فيهم ووعده وعوداً كثيرة أن يذهب إلى المغرب وأن يدس السم لإدريس ، ويذكر أن سليمان بن جرير سافر إلى المغرب واحتفى بإدريس فأنس به واجتبه « وكان ذا لسان وعارضة وكان يجلس في مجلس البربر فيحتج للزيدية ويدعو إلى أهل البيت ، وقد أعجب به إدريس وقربه إليه ، حتى تمكن سليمان بن جرير من دس السم له (٢) .

وإذا صح هذا ، فيكون الزيدية البتيرة إذن قد انقلبت على أولاد الحسن بن علي واختلفت معهم مرة مع يحيى بن عبد الله ومرة مع إدريس بن عبد الله .

وبقي العباسيون يخشون الزيدية فقتل هارون الرشيد عبد الله بن الحسن بن علي بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب بدعوى أنه يجمع الزيدية أيضاً للخروج (٣) .

ثم كتبت الزيدية ملحمة أخرى من الملاحم حين خرج محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين أيضاً هو ومحمد بن إبراهيم - وكان داعيهم الأكبر في فارس - من أكبر فرسان الإسلام هو أبو السرايا ، السري بن منصور « وكان علوى الرأي ذا مذهب في التشيع ، ولكنه حارب مع الزيدية واستولى على الكوفة وأغلب فارس وانصر على العباسيين ، ولكن أهل الكوفة خذلوه في نهاية الأمر ، وقد قتل فيما بعد هو ومحمد بن محمد وفي مكة خرج محمد بن جعفر بمائتي رجل من الجارودية الزيدية وعليهم ثياب الصوف وسياء الخير عليهم ظاهرة (٤) ثم خرجت الزيدية الجارودية مع محمد بن القاسم ، من أحفاد الحسن بن علي - ويذكر الأصفهاني أنه كان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد ، ويرى رأى الزيدية الجارودية ، وقد تفرق عنه أهل الكوفة لما عرفوا زيديته وميله إلى المعتزلة . وقد عرف محمد بن القاسم بصاحب الطالقان ، وقد انتهى الأمر بأمره وسجنه ، ومات في سجنه (٥) .

ثم خرج في أيام المستعين يحيى بن عمر من أحفاد زيد بن علي ، واجتمع عليه أهل الكوفة أيضاً ، وكان له أنصار كثيرون يقول الشهرستاني : « خرج ودعا الناس واجتمع عليه خلق كثير » ، ويدو أن

(٤) الأصبهاني : مقاتل ... ص ٢٥٣ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٦ .

(١) الأصبهاني : مقاتل ... ص ٣٠٧ .

(٢) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٢٢٦ .

(٣) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٣٧٢ .

الشيعة كانت قد استقرت أيضاً في بغداد . ووافقت دعوته « إلى الرضا من آل محمد » هوى في نفوس البغداديين . يقول الأصفهاني : « وكان هوى أهل بغداد مع يحيى ولم يروا قط مالوا إلى طالبي خراج غيره » ولما قتل يحيى في الكوفة وحمل رأسه إلى بغداد ، جعل أهلها يقولون « إن يحيى لم يقتل ميلاً منهم إليه ، وأخذ الناس يصيحون « ما قتل وما فر ، ولكن دخل البر (١) » وهذا يدل على انتشار المذهب الشيعي حينئذ في بغداد ، وإيمان عدد كبير منهم بالغيبة ، هذا بالرغم من أن يحيى بن عمر كان يقاتل على قاعدة زيدية .

وتعددت الحركات الزيدية ، ولكنها فشلت جميعاً حتى ظهر الإمام الناصر الحسن بن علي من نسل الحسين والمعروف بالأطروش يقول الشهرستاني : « ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش فطلب مكانه ليقتل ، فاختنق واعتزل إلى بلاد الديليق والجبل ولم يتحلوا بدين الإسلام بعد ، فدعا الناس دعوة الإسلام على مذهب زيد ، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة (٢) .

ثم انتقل المذهب الزيدي إلى اليمن على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم من أحفاد الحسن ، وقد ولد بالمدينة سنة ٢٤٥ . والإمام الهادي زيدى المذهب معتزلي العقيدة ، وقد بايعه أهل اليمن عام ٢٨٤ ، وأخذ يحارب التشيع الغالي ومذهب القرامطة ، وفي سنة ٢٩٢ اشتبك في حروب عنيفة مع القرامطة ، حتى مات عام ٢٩٨ . وتولى الأمر بعده أبنائه .

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤١٣

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٥٤

## الفصل الخامس

### تطور العقائد الزيدية الكلامية

أتى الإمام زيد بن علي بآرائه في الإمامة وبعقائده الدينية ، فشغلت بها مجامع المسلمين جميعاً في ذلك العصر ، وعاشت آراؤه بعده ، وتناولها أتباعه وتلامذته بالتفسير ، واختلفوا عليها . واختلفاتهم وتفسيراتهم إنما استلهمت من حياة زيد وآرائه . وقد قسم مؤرخو العقائد الإسلامية الزيدية إلى فرق متعددة سنحاول أن نعطي في هذا الفصل صورة لها .

أول فرقة نشأت - فيما يبدو - كفرقة زيدية هي الجارودية نسبة إلى مؤسسها أبي الجارود - ويكنى أبا النجم زياد بن المنذر الهمداني الحراساني العبدى ويقال له أحياناً النهدي والثقي الكوفي (توفى ما بين عام ١٥٠ هـ و ١٦٠ هـ) <sup>(١)</sup> ويبدو أنه أخذ العلم أولاً على محمد الباقر ، ثم فارق . ولقبه سرحوبيا ، وفسر الباقر نفسه سرحوبيا بأنه شيطان أعمى يسكن البحر <sup>(٢)</sup> ، أما جعفر الصادق فقد لعنه وقال «إنه أعمى القلب أعمى البصر» أما أهل السنة فقد اعتبروه رافضياً يضع الحديث في مثالب الصحابة ويرى في فضائل أهل البيت عنهم أشياء لا أصول لها . بل اعتبروه من أهل الكوفة الغلاة <sup>(٣)</sup> ويبدو أنه اتصل بزيد بن علي في الكوفة ، وأصبح من رجاله المدوديين ، وقد شارك ، بالرغم من عناه ، في المعركة مع زيد هو ورجاله ، وثبت معه ، حين تخلى عنه شيعة الكوفة من الروافض .

ولقد عادى الإمامية الجارودية عداوة مرة ، ولقد رأينا كيف أن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق تبرأ منه . ويتضح هذا من إعلانه للأصل المهام للزيدية وهو «أن الإمامة قد صارت بعد مضي الحسين في ولد الحسن والحسين فهي فيهم خاصة دون سائر ولد علي بن أبي طالب» وبهذا الأصل خرج علي إمامة الباقر والصادق . ثم يضيف إلى هذا الأصل شروط الخروج «وهم كلهم فيها شرع سواء ، من قام منهم ودعا لنفسه فهو الإمام المفروض الطاعة بمرتبة علي بن أبي طالب واجبة إمامته من الله عز وجل على أهل بيته وسائر الناس كلهم . وهذا شرط يفتقد أيضاً في الباقر والصادق . ثم يشير إلى قعود كل من الباقر والصادق ويقول «من تخلف عنه في قيامه ودعائه إلى نفسه من جميع الخلق فهو كافر» ثم يغمز كلا من الباقر والصادق من طرف خفي «ومن ادعى منهم الإمامة - وهو قاعد في بيته

(١) ابن التديم : الفهرست ص ٢٦٧ والنويني : فرق الشيعة ص ٢١ والشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) النويني فرق الشيعة ص ٥٥ . (٣) تهذيب التهذيب : ص ٢٨٦ .

مرخى عليه ستره ، فهو كافر مشرك » ، « وكل من اتبعه على ذلك وكل من قال بإمامته » وقد دعا هذا إلى كراهية الإمامية للجارود ، وللجارودية وتسميته بسرحوب وفرقة بالسرحوية ، ويدعو أنه كون عقائده قبل أن يتصل بزید ، فلما أعلن زيد دعوته . انضم إليه هو وأصحابه وقالوا بإمامته (١) . ويختلف أيضاً أبو الجارود مع الإمامية في أنه يرى أن النبي ﷺ نص على علي عليه السلام بالوصف لا بالتسمية ، والناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف ، وإنما نصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا . أو بمعنى أدق إن أبا الجارود لم يتول الشيخين - كما فعل زيد بن علي - بل كفرهما ، وكفر الصحابة جميعاً . بل ذهب أبو الجارود إلى أن الإمام بالنص سواء من النبي أو من علي بن الحسن والحسين بعد علي ، وقد كفر الناس أيضاً بتركهم الاقتداء بها بعد أبيهما (٢) . ويقص لنا النوبختي - وهو شيعي إمامي نفس الشيء عن الجارودية فيقول « قالوا بتفضيل علي عليه السلام ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه ، وزعموا أن من دفع علياً عن هذا المكان فهو كافر ، وأن الأمة كفرت وضلت في تركها بيعته وجعلوا الإمامة بعده في الحسن بن علي عليها السلام ثم في الحسين عليه السلام ثم هي شوري بين أولادهما فن خرج منهم مستحقاً للإمامة فهو الإمام ويرى النوبختي أن من الجارودية تشعبت صفوف الزيدية (٣) فالجارودية إذن هي الزيدية الأولى .

نسبت الجارودية العلوم الخاصة إلى الأئمة من آل البيت جميعاً يلقي فيهم فطرة وضرورة قبل التعلم ، « إن علم ولد الحسن والحسين عليهما السلام كعلم النبي ﷺ ، فيحصل لهم العلم قبل التعلم فطرة وضرورة بل إنهم متساوون فيه من المهدي الحلال حلال آل محمد ﷺ وآله والحرام حرامهم والأحكام أحكامهم وعندهم جميع ما جاء به النبي ﷺ وآله كامل عند صغيرهم وكبيرهم والصغير منهم والكبير منهم في العلم سواء لا يفضل الكبير الصغير ، من كان منهم في الحرق والمهد إلى أكبرهم سناً وليس يحتاج أحد منهم أن يتعلم من أحد منهم ولا غيرهم ، العلم ينبت في صدورهم كما ينبت الزرع المطر ، والله عز وجل قد علمهم بلطفه كيف شاء . فنحن إذن نعود هنا إلى فكرة الغلاة في العلم الإلهي ، وأنه ينتقل من إمام إلى إمام ، أو بمعنى أدق أصبح الإمام عنصراً أبتيمولوجياً . يفيض العلم منه ويتقل . ويحاول أن يعلل النوبختي قول الجارودية فكرة فطرة العلم عند الأئمة : وإنما قالوا بهذه المقالة كراهة أن يلزموا الإمامة بعضهم دون بعض ، فيستقص قولهم إن الإمامة صارت فيهم جميعاً فهم فيها شرع سواء (٤) ، قد يكون تعليل النوبختي معقولاً إلى حد ما ولكن يبدو أن السبب العام في قول

(١) النوبختي : فرق الشيعة ص ٥٥ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٦٧ . والبندادي : الفرق ٢٣ والشهرستاني : الملل : ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) النوبختي : فرق الشيعة ص ٢١ . (٤) نفس المصدر السابق ص ٥٦ .

الجارودية بهذا هو ضخامة فكرة العلم السرى المنسوب إلى الأئمة وانتشار هذه العقيدة في الكوفة ، بل إننا نرى زيدياً معتدلاً - هو هارون بن سعيد العجلي - هو الذى نقل لنا كتاب الجفر المنسوب إلى جعفر الصادق . لقد كان من الشائع في الكوفة أن لدى أهل البيت جميعاً علم الأولين والآخرين وأنه انتقل إليهم من محمد ﷺ إلى علي ثم إلى أولاده من بعده . ومن العجب أن زيداً بن علي هو الذى كره الجماع الغنوصية في الكوفة - ولعل استعانته بواصل بن عطاء وموافقته على منهجه العقلي إنما كان للقضاء على الغنوصية ، ثم يقع أتباعه في غنوصية كاملة . بل ذهب البعض منهم إلى أن علياً علم ما علمه رسول الله ﷺ من علم الدنيا والآخرة ، وما كان وما هو كائن ، وعلم على بعد رسول الله علماً لم يكن يعلمه ، وأن علياً أعلم من رسول الله ﷺ ، وجعلوا الأئمة بعده يرثون ذلك منه إلى يومنا هذا الأكبر فالأكبر ، وأن العلم يولد معه لا يحتاج إلى تعليم (١) اختلطت إذن فكرة العلم السرى بعقائد الزيدية وأثرت في أكبر فرقها ، ولكن ما لبثت سائر الفرق الزيدية الأخرى أن أنكرت ذلك ووسعوا الأمر فقالوا : العلم مشيئ مشترك فيهم وفي عوام الناس هم والعوام من الناس فيه سواء . وبهذا فتحوا باب الاجتهاد والاختيار والرأى (٢) .

والآن . . . وضحت لنا معالم الجارودية ، مزيج من شيعة غالية وزيدية ، أى رافضة وزيدية . وأخيراً ، عادت الجارودية ، رافضة بعد أوشية غالية فاختلفت في «التوقف والسوق» وآمنوا بالمهدية وخلود الإمام فشاركوا في حركة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن . واختلفوا بعد مقتلهم من قال : إنه لم يقتل وهو حى ، وسيخرج ويملأ الأرض عدلاً . ومنهم من أقر بموته وساق الإمامة إلى محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين على صاحب الطالقان . ومنهم من قال بإمامة يحيى بن عمر . حدث كل هذا بعد موت أبي الجارود ، والنوبختي يرى «أن هؤلاء الذين وضعوا الإمامة على هذا النسق . علي ، ثم زيد بن علي بن الحسين ، ثم يحيى بن زيد ، ثم عيسى بن زيد بن علي ثم محمد بن عبد الله بن الحسن هم الحسينية من الزيدية . ولا شك أن الفرق تتداخل وينطوى الواحدة منها في الأخرى . وقد تشتت الجارودية بعد ذلك في الإمامية والزيدية ، ولم يظفر أبو الجارود بمحبة أى من طوائف الشيعة المختلفة ، وإن كان هو يمثلها جميعها .

وقد ذكر أن من أصحابه فضيل بين الزبير الرسان وأبا خالد عمرو الواسطي ، وقد كان هذا الأخير راوياً لزيد ، وقدّم لنا الفقه الزيدى في كتاب الزيدية المشهور المجموع ، ومنصور بن أبي الأسود ، وقد اعتبرهم النوبختي الأقوياء من الزيدية (٣) .

(١) اللطى : التيه ص ١٥١ .

(٢) النوبختي : فرق الشيعة ص ٥٨ .

(٣) النوبختي : فرق الشيعة ص ٥٦ ، ٥٧ .

أما الفرقة الثانية من الزيدية فهي الصاحبية نسبة إلى الحسن بن صالح بن حي الهمداني الكوفي ، وكان الحسن بن صالح من أعظم فقهاء الإسلام وعبادهم ومتكلمهم وذكر عنه أنه واجتمع فيه إتقان وفقه وعبادة وزهد ، وقد طلب منه أن يصف غسل الميت فما قدر عليه من البكاء ، وكان هو وأخوه على وأمهما من العبادة أن قسموا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان كل واحد يقوم ثلثاً ، فأتت أمهما فاقسموا الليل بينها ثم مات على فقام الحسن الليل كله ، وكان من أصحاب سليمان الداراني عابد الشام الكبير ، وكان الداراني يقول عنه : « ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه من الحسن . قام ليله بعم يتساءلون ، فغشى عليه فلم يجتمها » ويذكر عنه أيضاً أنه كان ممن تجرد للعبادة ورفض الرئاسة . وقد كرهه بعض علماء الفقه من أمثال سفیان الثوري وقال فيه « ذلك رجل يرى السيف على الأمة » (١) . أى أنه يرى الخروج .

ويذكر ابن النديم أن الحسن بن صالح ولد سنة مائة ، وكان من كبار الشيعة الزيدية وعظماهم وعلمائهم ، وكان فقيهاً متكلماً ، وأنه كان له أخوان على وصالح وكان الاثنان على مذهب أخيها ، وكان على بالذات متكلماً ، ويرى ابن النديم أن أكثر علماء المحدثين والفقهاء زيدية . ثم يذكر أن الحسن بن صالح مات سنة ثمان وستين ومائة ، متخفياً وله من الكتب « كتاب التوحيد . وكتاب إمامة ولد على من فاطمة ، وكتاب الجامع في الفقه » (٢) . وقد حظى الحسن بن صالح باحترام أهل السنة ، وقد ذكر البغدادي أن الحسن بن صالح وأصحابه أقرب الناس إلى السنة ، وقد أخرج له مسلم ، وذكره البخاري في التاريخ الكبير وقال الحسن بن صالح بن حي الكوفي : سمع سهاك بن حرب ومات سنة سبع وستين ومائة وهو من ثوار همدان وكنيته أبو عبد الله (٣) . فالجمهور إذن على توثيقه كمحدث .

شارك الحسن بن صالح وأهل بيته في الخروج مع زيد بن علي ، ولكن لا يبدو أنه شارك في خروج إبراهيم بن عبد الله . ثم حين قتل هذا الأخير وتوارى عيسى بن زيد وجد في دور بني صالح بن حي ملجأً آمناً . وقد لزم الحسن بن صالح عيسى بن زيد في تواريه ، وكان صاحبه ووزيره ، ذهب معه إلى الحج ، وكانا يتذاكران العلم ، وقص لنا الأصبهاني صاحب كتاب « مقاتل الطالبين » مقابلة الاثنین لسفيان الثوري ، وقد دعا الحسن بن صالح سفیان « بالشفاء » وهذا ما يدل على أن الحسن بن صالح لم يتأثر بكرهية سفیان له (٤) . ثم أخذ الحسن بن صالح يجتمع بالزيدية وينظم الدعوة لعيسى

(١) البغدادي : الفرق . . . ص ٢٤ .

(٢) تهذيب : التهذيب ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٣) الأصبهاني : مقاتل . . . ص ٢٧٧ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ١٢٧ .

ابن زيد، وقد أحصى له في ديوانه عشرة آلاف رجل . وطلب من عيسى بن زيد الخروج ولكن عيسى رفض . وقد مات الحسن بن صالح بعد وفاة إمامه بشهرين ، وقد ذكرنا من قبل - ونحن نتكلم عن عيسى بن زيد - كيف نهى الحسن بن صالح صباح الزعفراني أن يبلغ خبر وفاة عيسى بن زيد للمهدي العباسي . ونحن بلغ المهدي العباسي وفاة الحسن بن صالح سجد وقال : الحمد لله الذي كفاني أمره ، فلقد كان أشد الناس على ولعله لو عاش لأخرج على غير عيسى (١) فالحسن بن صالح إذن كان أخطر رجال الحركة الزيدية على الإطلاق . لقد اختص فيما يبدو بأبناء زيد وبقي مخلصاً لهم دون أولاد فاطمة الآخرين مدى حياته . ويذكر النوبختي أن أحد أبناء الحسن بن صالح بن حي خرج مع جماعة من أهل الكوفة - الزيدية البترية ، مع يحيى بن عبد الله بن الحسن والمشهور بصاحب الطالقان . فاختلف معه ثم فارقه (٢) . وهذا دليل واضح على أن الحسن بن صالح وأولاده أخلصوا لأبناء زيد بن علي وهم من ولد الحسين .

والشخصية الثانية من شخصيات الفرقة الصالحة - وتنسب هذه الفرقة إليها أيضاً - هي شخصية «كثير النواء» وهو أبو إسماعيل كثير بن إسماعيل بن نافع النواء ، وسمى أتباعه بالبترية لأن كثيراً كان يلقب بالأبتر (٣) . وكان كثير النواء محدثاً ، وهو من رجال الميزان . ويذكر النوبختي أن البترية هم أصحاب الحديث . وعدهم منهم سفيان بن سعيد الثوري وشريف بن عبد الله وابن أبي ليلى ، بل محمد ابن إدريس الشافعي ومالك بن أنس . ومن الخطأ الكبير أن يعتبر هؤلاء جميعاً زيدية ، وإن كانت تشويهم فعلاً شائبة من زيدية .

أما آراء الحسن بن صالح أو الصالحة : فهي تكاد تكون آراء زيد بن علي نفسها : أولاً : إمامة المفضول وتأخير الفاضل والأفضل ، إذا كان الأفضل راضياً بذلك «إن علياً أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة ، ولكنه سلم الأمر راضياً ، وفوض الأمر إليهم طائعاً ، وترك حقه راغباً ، فنحن راضون بما رضى مسلمون لما سلم ، لا يحل لنا غير ذلك ، ولو لم يرض على بذلك ، لكان أبو بكر هالكاً» فالصالحية إذن تتولى الشيخين ، في صورة من الصور . ولا ضير في طريق توليهم هذا لها عند أهل السنة والجماعة فإذا انتقلنا إلى رأيهم في عثمان : وهل هو مؤمن أم كافر ، نراهم مرجئة قالوا : إذا سمعنا الأخبار الواردة في حقه وكونه من العشرة المبشرين بالجنة ، قلنا : يجب أن يحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة ، وإذا رأينا الأحداث التي أحدثها من استهتاره

(١) الأصبهاني : مقاتل . . . ص ٢٨٣ .

(٢) النوبختي : مقاتل الطالين ص ٣١٢ .

(٣) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ .

بيني أمية وبنى مروان واستبداده بأمر لم توافق الصحابة . قلنا : يجب أن يحكم بكفره . فتحيرنا في أمره وتوقفنا في حاله ، ووكلائه إلى أحكم الحاكمين <sup>(١)</sup> . وهذا خلاف بلا شك مع أهل السنة والجماعة ، ولكنه خلاف رقيق ، ويتضح منه قبول الصالحية لأسانيد أهل السنة ، والحديث عن العشرة المبشرين بالجنة ، وقد أنكره الإمامية ثم نرى - كما قلت - روحاً مرجئية ، أو تطبيقاً لمبدأ الإرجاء في عثمان رضي الله عنه .

أما النوبختي ، فقد اعتبر الزيدية المعتدلة أو الضعفاء هم العجلية : أصحاب هارون بن سعيد العجلي الكوفي ، وهو من أصحاب جعفر الصادق ، ومن نقل عنه كتاب الجفر ، واعتبر الصالحية والبرية فرقة من العجلية ، وعد من أصحاب العجلى - كثير التواء ، وهو الذي يدعى بالأبتر ، وكان أيضاً من رجال الحسن بن صالح ، ثم سالم بن أبي حفص والحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل وأبو المقدم ثابت الحداد .

ويرى النوبختي أن آراء هذه الفرقة سواء سميت بالعجلية أو البرية : هي الدعوة إلى ولاية علي بن أبي طالب ثم خلطها بولاية أبي بكر وعمر . ويرى النوبختي «هم عند العامة أفضل الشيعة» وذلك أنهم يفضلون عليا ويشتون إمامة أبي بكر <sup>(٢)</sup> .

ثانياً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : كانت هذه الفرقة الممثلة حقيقة لهذا المذهب . آمنوا به ، وقد تفرع عنه فكرتهم في الخروج مع كل من ولد من علي عليه السلام عن طريق فاطمة . ويشتون الإمامة لمن شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين وكان عالماً زاهداً شجاعاً ، أي يشتونها له عند خروجهم ، وعليهم إذن القتال تحت رايته .

ثالثاً : إنكار التقية : ويتفرع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «إنكار التقية» فلا يكون إماماً من يفتي بالباطل على شيء بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال . ولا يكون إماماً من يفتي تقية بغير ما يجب عند الله أو من يفتي على وجه التبخيت ، فيفتي يوماً بوجه ، ويوماً آخر بوجه ، فيفضل صحيحى العزم ممن يتدينو بإفتائه . ولا يكون إماماً من يرخصي ستره ويفلق بابه . لا يسع الإمام إلا الخروج <sup>(٣)</sup> ؛ وفي هذا نقص كبير لمبادئ الإمامية .

أما الفرقة الثالثة الكبيرة من الزيدية فهي السلجانية وقد نسبت إلى مؤسسها سليمان بن جرير الرقي <sup>(٤)</sup> وقد ظهر أيام المنصور ويبدو أنه كان إمامياً أول الأمر ، ثم كون فرقة بعد انفصاله عن جعفر

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٢) النوبختي : فرق الشيعة ص ٥٧ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٩ ؛ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٩ .

(٤) النوبختي : فرق ص ٦١ .

الصادق . وهو يوافق الصالحية في أن الإمامة شورى فيما بين الخلق ، ويصح أن تتعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين . وأنها تصح في المفضول مع وجود الأفضل . فإمامة أبي بكر وعمر حق باختيار الأمة ، حق اجتهادى . ومن المرجح أن الأمة أخطأت في البيعة لها مع وجود الأفضل - على - خطأ لا يبلغ درجة الفسق . وذلك الخطأ خطأ اجتهادى . ثم يخالف الصالحية في عثمان . فقد طعن فيه للأحداث التي أحدثها ثم أعلن تكفيره وتكفير أصحاب الجمل - عائشة والزبير وطلحة بإقدامهم على قتال علي . ثم اختلف سليمان بن جرير مع «الرافضة» أي الإمامية من أتباع جعفر الصادق . أومع جعفر نفسه . كان جعفر الصادق قد أعلن ولاية ابنه إسماعيل بن جعفر من بعده ، ولكن إسماعيل مات في حياة أبيه ، فلما سئل جعفر الصادق - أو من عقائد الإمامية أن الإمام يعلم غيب السموات والأرض ؟ قال : إن الله عز وجل بدا له في إمامة إسماعيل ، أي أن الأمر داخل في نطاق البداء ، بدا له أن يموت إسماعيل ولا يكون إماماً ، أي تغيرت مشيئته . فأنكر سليمان بن جرير إمامة جعفر نفسه فأنكر «البداء» «والمشيئة من الله» وقال لأصحابه «إن أئمة الشيعة وضعوا لشيعتهم مقاتلين لا يظهرون منها من أئمتهم على كذب أبدأ ، وهما القول بالبداء وإجازة التقية<sup>(١)</sup> أما البداء ، فينكره سليمان بن جرير لأن أئمة الإمامية أحلوا لأنفسهم من شيعتهم محل الأنبياء من رعيته في العلم «فيا كان ويكون» أي أن الأئمة حاملون للعلم الغيبي . «والإخبار بما يكون في غد» قالوا لشيعتهم «إنه سيكون في غد وفي غابر الأيام كذا وكذا» فإن حدث ذلك الشيء على ما قالوه . قالوا لهم «لم نعلمكم أن هذا يكون ، فنحن نعلم من قبل الله عز وجل مثل تلك الأسباب التي علمت بها الأنبياء عن الله ما علمت» وإن لم يحدث الشيء على ما قالوه . قالوا لشيعتهم «بدا لله في ذلك بكونه» أي شاء الله غير ما أرادته أولاً . ولهذا أنكر سليمان بن جرير البداء .

أما التقية ، فقد قرر سليمان بن جرير «أنه لما كثرت على الأئمة مسائل شيعتهم في العبادات من حلال وحرام ، أجابوا على تلك المسائل ، وحفظ عنهم شيعتهم ما سألوه وكتبوه ودونوه . ولم يحفظ الأئمة تلك الأجوبة لتقدم العهد وتفاوت الأوقات ، لأن مسائلهم لم ترد في يوم واحد ولا في شهر واحد ، بل في سنين متباعدة وأشهر متباينة وأوقات متفرقة ، فوقع في أيديهم في المسألة الواحدة عدة أجوبة مختلفة متضادة وفي مسائل مختلفة أجوبة متفقة ، فلما وقفوا على ذلك منهم ردوا إليهم هذا الاختلاف والتخبط في جواباتهم وسألوهم عنه وأنكروه عليهم ، فقالوا : من أين هذا الاختلاف وكيف جاز ذلك ؟ قالت لهم أئمتهم : إنما أجبنا بهذا التقية ولنا أن نجيب بما أجبنا ، وكيف شئنا لأن ذلك إلينا ونحن نعلم بما يصلحكم وما فيه بقاءنا وبقاؤكم وكف عدوكم عنا وعنكم» يتساءل سليمان بن

جرير «فتى يظهر من هؤلاء على كذب ، ومتى يعرف لهم حتى من باطل ؟» (١) وهنا أنكر التقية ، ومالت نفسه إلى الزيدية ، فأمن بها . وليس في الزيدية علم سرى ، ولا إمام معصوم ولا تقية ولا بداء . وكانت لحركة سليمان بن جرير أثر كبير في الشيعة إذ انفض عدد كبير منهم عن جماعة جعفر ابن علي ، وتركوا إمامته .

تلك هي الفرق الهامة من فرق الزيدية ، ولكن المسعودي يذكر « أن الزيدية كانت في عصره ثمانية فرق (٢) فيضيف إلى الفرق الثلاثة السابقة الفرق الآتية : المرثية ، والأبرقية . ولا ينسبها إلى شخص من الأشخاص ، ثم يعقوبية : وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي ، ثم العقبية ثم الجمانية : وهم أصحاب محمد بن إيمان الكوفي . وقد ذكر الأشعري هذه الفرقة الأخيرة باسم النعمية : أصحاب نعيم ابن إيمان . ويرى المسعودي أن هذه الفرق قد زادت في المذهب ، وفرعوا مذاهب على من سلف من أصولهم ، ونلاحظ أن معظم تلك الفرق كانت كوفية ، فالكوفة إذن كانت مجالاً لجدل عنيف زيدى ، واختلافات زيدية . ويقول التوحيدي «سما كلهم في الجملة زيدية إلا أنهم مختلفون فيما بينهم في القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام» (٣) .

أما الملطي - وهو أقدم مؤرخ للعقائد ، وتسود كتاباته روح سلفية - فقد اعتبر الزيدية من جملة الروافض . وعلل تسميتهم بهذا الاسم أنهم « صاروا يطعنهم على عثمان وتقديهم علياً رافضه يقال لهم الزيدية» (٤) فكل من رفض الخلفاء الثلاثة - في رأى الملطي - رافضة ومنهم : الإمامية لرفضهم الشيخين ، والزيدية لرفضهم عثمان - وإن كانوا يتولون الشيخين . ثم قسم الملطي الزيدية إلى أربع فرق :

الفرقة الأولى من الزيدية عنده : ولا ينسبها إلى شخص معين وإنما يقول هي أعظمهم قولاً ، وهم « الذين يذكرون الصدر الأول وسائر من يشنون رأياً إذا خالفهم» (٥) أي أنهم يكفرون من ليس على مذهبهم . ويذكر الملطي أن هذه الفرقة ترى قتل المخالفين وسبى نسائهم ، وأخذ أموالهم وقتل أطفالهم . بل يراهم أشد أنواع الشيعة ضرراً « إنما هو بقدر ما يخرج الواحد منهم يضع السيف والحريق والنهب والسبي ولا يقصدون ولا يرعون» ويذكر أنه ظهر من هذه الفرقة محمد بن علي صاحب ثورة الزنج في البصرة قتل محالفيه وأطفالهم متأولاً « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» وبما لا شك فيه أن الملطي هنا يبالغ كثيراً في وصف هذه الفرقة ، وبما لا شك فيه أن في الزيدية شبيهاً بالخوارج - كما قلت - ولكن لا يصل

(١) التوحيدي : فرق .. ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٣ .

(٣) التوحيدي : فرق ص ٥٥ .

(٤) الملطي : التنبية ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٥) الملطي : التنبية ص ٣٨ ، ٣٩ .

إلى هذا الحد العنيف من قتل المخالفين وأطفالهم وسبي نسائهم . ومن العجب أنه يضع صاحب ثورة الزنج بين الزيود . فهل كان محمد بن علي زيدى ومن آل البيت ومن الغريب أن النوبختي يعتبر الجارودية : بين الغالية والتناسخية . ويقول : إنهم لا يفصحون بالفلو ، ويرون أن الله نور وأرواح الأئمة والأنبيا منه متولدة ، وينحون نحو التناسخ ولا يقولون بانتقال الروح من جسد إنسان إلى جسد غير إنسان أى أن التناسخ عندهم في نطاق النوع ، فتنقل الروح من جسد إنسان ردىء إلى جسد إنسان مؤلم ممرض ، فيعذب فيه مدة بما عمل من الشر والفساد ثم تنقل إلى جسد إنسان متمم ، فتتم فيه طول ما بقيت في الجسد الأول ويرى الملطى . أن الجارودية تذكر أن هذا هو « الكور » فيكون معذباً أو مقيداً في جسد هرم أو ممرض أو مسقم . أو يكون منعماً في جسد شاب حسن متلذذ ، وأنهم يستندون في ذلك لقول الله « أفصينا بالخلق الأول ، بل هم في ليس من خلق جديد (١) » . لا ينسب أحد من مؤرخي العقائد مذهباً في التناسخ إلى الجارودية فهل أخطأ الملطى ، أم أن الجارودية دخلت في الفلو بعد وفاة مؤسسها وشاركت الغلاة في آرائهم ؟ . ليس لدينا من المصادر ما يؤكد هذا . إن من المحتمل أن الجارودية قد انصهرت في الإمامية وشاركتها في آرائها ولكن من البعيد جداً أن تنسب إلى مذهب ثنوى بعيد كل البعد عن الإسلام . ثم يذكر الملطى الفرقة الثانية من الزيدية وهي التي تكفر السلف ويتبرأون من الشيخين ويتولون علياً وأبناءه ولكنهم لا يرون السيف - أى وضع السيف في رقاب المخالفين وقتلهم ، ولا استحلال نسائهم ولا أقوالهم .

أما الفرقة الثالثة عنده فهي فيما أرجح الصالحية وذلك أنه يذكر أنهم يقولون بأن الأمة ولت أبا بكر « اجتهاداً » لا عناداً ، وأن الصحابة قصدوا الحقيقة فأخطأوا في الاجتهاد غير متعمدين ، ولولا مفضولاً على فاضل . ولم يكفروا أحداً من الصحابة . ويكاد يمدحهم الملطى - مع حدته ومرارة قلمه - فيقول « وهم أصحاب سمع ، ويظهرون زهداً وعبادة وخيراً ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقولون بالعدل والتوحيد » وهذه أوصاف تنطبق تماماً على الصالحية البرية ويهنا أيضاً أنه يوجه الأنظار إلى معتزلية هذه الطائفة من الزيدية ، ثم يبين بحسم الانقاف النهائي بين الزيدية وبين المعتزلة أو بينها وبين مدرسة كبيرة من المعتزلة فيقول : إن الفرقة الرابعة من الزيدية - هم معتزلة بغداد يقولون بقول الجعفرية - جعفر بن مبشر الثقفى وجعفر بن حرب الهمداني ومحمد بن عبد الله الإسكافي وهؤلاء أئمة معتزلة بغداد ، وهم زيدية يقولون : بإمامة المفضول على الفاضل . ويقول : إن علياً عليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ لا يسبقه بالفضل أحد من الأمة وزعموا أن إمامة المفضول على الفاضل جائز ، لما ولى النبي ﷺ عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار في غزوة ذات

اختلفت إذن بعض فرق الزيدية ببعض فرق المعتزلة ومن الواضح أن المعتزلة أثرت أثراً بيناً في الزيدية ، ولكن لم تأخذ كل فرق الزيدية بآراء المعتزلة في دقيق الكلام وجليله . اقترب البعض منهم من الأشاعرة ، واقترب البعض الآخر منهم من المعتزلة والبعض الثالث مزج بين بعض عقائد المعتزلة والأشاعرة ونعطي بعض الأمثلة على هذا : فجمهور الزيدية - في رأى الأشعرى - يقولون إن الله شيء لا كالأشياء ولا تشبه الأشياء . وهذا اتجاه سنى ، ولكنى الأشعرى يورد أيضاً أن فرقة أخرى من الزيدية تقرر أن البارئ ليس بشيء ، ومثال آخر : إن سليمان بن جرير - يقرر أن الله عالم بعلم لا هو هو ولا غيره ، وأن علمه شيء . قادر بقدرة لا هي هو ولا غيره وإن قدرته شيء . وكذلك سائر صفات الذات . وفرقة ثانية تقول : إن الله عالم قادر سميع بصير بغير علم وحياء وقدرة وسمع وبصر . وكذلك في سائر صفات الذات . أى ينكرون الصفات إنكاراً كاملاً . فالسليمانية أصحاب سليمان بن جرير - كما رأينا - وقد كان متكلماً ممتازاً وترك كتاباً في دقيق الكلام - يقترب إلى حد كبير في فكرته عن الصفات من أهل السنة والجماعة ، ويختلف إلى حد ما عن المعتزلة ، وتقترب الفرقة الثانية من المعتزلة ، ولكن سليمان بن جرير سرعان ما يتفق مع المعتزلة في إحالة القدرة : على الظلم لله « فأنه لا يوصف بالقدرة على أن يظلم ويجور ، ولا يقال لا يقدر : لأنه يستحيل أن يظلم ويكذب » وهذا اتجاه معتزلى . بل إن الاتجاه المعتزلى يصل أوجه عنده حين يسأل عن قدرة الله على ما علم أنه لا يفعله ، فيجيب : « إن هذا الكلام له وجهان : إن كان السائل يعنى ما علمه أنه لا يفعله مما جاء الخبر بأنه لا يفعله ، فلا يجوز القول يقدر عليه ، ولا يقدر عليه ، لأن القول بذلك محال وأما ما لم يأت به خبر ، فإن كان مما في العقول دفعه ، فإن الله عز وجل لا يوصف به ، وأن من وصفه به محيل ، فالجواب في ذلك مثل الجواب فيما جاء الخبر بأنه لا يكون وأما ما لم يأت به خبر ، وليس في العقول ما يدفعه ، فإن القول إنه يقدر على ذلك جائز ، وإنما جاز القول في ذلك لجهلنا بالمغيب فيه ، ولأنه ليس في عقولنا ما يدفعه ، وأنا قد رأينا مثله مخلوقاً ههنا نجد سليمان بن جرير معتزلياً ، بينما فرقة أخرى موافقة للاتجاه السننى تقول : إن الله يوصف بالقدرة على أن يظلم ويكذب ولا يظلم ولا يكذب ، وأنه قادر على ما علم وأخبر أنه لا يفعله أن يفعله (١٧) .

ويختلف الزيدية أيضاً في خلق الأعمال ، ففريق منهم يرى أن أعمال العباد مخلوقة ، خلقها الله وأبدعها/ واخترعها فهو الفاعل على الحقيقة ، وفرقة أخرى ترى أنها غير مخلوقة لله ولا محدثة وهي أكساب العباد ، أحدثوها واخترعوها وأبدعوها وفعلوها ، وقد أدى هذا إلى بحث الاستطاعة في الجامع

الزيدية : فهي عند البعض « مع الفعل والأمر قبل الفعل » وهذا رأى سنى . بينما يذهب سليمان بن جرير إلى أن الاستطاعة قبل الفعل وهى مع الفعل مشغولة بالفعل فى حال الفعل وإنما يستطيع الفعل إذا فعله ، ويرى أن الاستطاعة بعض المستطيع وأن الاستطاعة مجاورة له ، ممازجة كما مزجة الدهنين ، وهذا رأى معتزلى . وفرقة ثالثة ترى أن « الاستطاعة قبل الفعل وأن الأمر قبل الفعل وأنه لا يوصف الإنسان بأنه يستطيع الشيء ، قادر عليه فى حال كونه » وهذه معتزلية مشوبة بأشعرية (١) . فالزيدية إذن تتردد بين المعتزلية وبين الأشعرية . وتختلف بينهما . هى بلا شك أقرب إلى المعتزلة ، ولكن ليس معنى هذا أنها لم تأخذ بعضاً من عقائد أهل السنة الكلامية . على أن عقائد الزيدية الكلامية تحتاج إلى بحث تركيبي متسع وتتبع لتطورات هذا الفكر وبخاصة لدى متكلم الزيدية الممتاز سليمان بن جرير .

• • •

وبعد : فقد تطورت الزيدية . أما فى الأصول - فيما يقول الشهرستانى - « فيرجعون إلى رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة ، ويعظمون أئمة الاعترال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى حنيفة إلا فى مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعى والشيعة » ثم يتكلم الشهرستانى عن زيدية عصره فيقول : « وأكثرهم فى زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأى واجتهاد » (٢) وعصر الشهرستانى كان القرن السادس الهجرى . ويبدو أن الزيدية بدأت تفقد خصائصها فى العراق وخراسان وتندمج فى الإمامية أيضاً فى ذلك القرن . فيقول الشهرستانى : « ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة الفضول وطعن فى الصحابة طعن الإمامية » (٣) .

وانقرضت الزيدية فى كل مكان اللهم إلا اليمن فقد بقيت ، وفى مطلع هذا القرن ، انتشرت فيها فكرة عصمة الإمام وقداسته ، وسادها الفوكلور الإمامى على أشد ما يكون . وبذلك قطعت كل صلة بينها وبين المذهب الزيدى الحقيقى .

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٤ .